

كتاب الخوف والرجاء

الفهرست:

في الرجاء

في الخوف

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله المرجو لطفه وثوابه، المخوف مكره وعقابه، الذي عمر قلوب أوليائه بروح رجائه حتى ساقهم بلطائف آلائه إلى النزول بفنائهم، والعدول عن دار بلائه التي هي مستقر أعدائه، وضرب بسياط التخويف وزجره العنيف وجوه المعرضين عن حضرته إلى دار ثوابه وكرامته، وصددهم عن التعرض لأئمتهم والتهديد لسخطه ونقمته، قوداً لأصناف الخلق بسلاسل القهر والعنف وأزمة الرفق واللطف إلى جنته، والصلاة والسلام على محمد سيد أنبيائه وخير خليفته وعلى آله وأصحابه وعترته.

أما بعد فإن الرجاء والخوف جناحان بهما يطير المقربون إلى كل مقام محمود، ومطيتان بهما يقطع من طرق الآخرة كل عقبة كنود، فلا يقود إلى قرب الرحمن وروح الجنان مع كونه بعيد الأرجاء ثقل الأعباء محفوفاً بمكاره القلوب ومشاق الجوارح والأعضاء - إلا أزمة الرجاء. ولا يصد عن نار الجحيم والعذاب الأليم - مع كونه محفوفاً بلطائف الشهوات وعجائب اللذات- إلا سياط التخويف وسطوات التعنيف، فلا بد إذن من بيان حقيقتيهما وفضيلتهما وسبيل التوصل إلى الجمع بينهما مع تضادهما وتعاندهما. ونحن نجمع ذكرهما في كتاب واحد يشمل على شطرين الشطر الأول في الرجاء، والشطر الثاني في الخوف.

الشطر الأول

في الرجاء

أما الشطر الأول فيشتمل على بيان حقيقة الرجاء، وبيان فضيلة الرجاء وبيان دواء الرجاء، والطرق الذي يجتلب به الرجاء.

بيان حقيقة الرجاء

اعلم أن الرجاء من جملة مقامات السالكين وأحوال الطالبين، وإنما يسمى الوصف مقاماً إذا ثبت وأقام، وإنما يسمى حالاً إذا كان عارضاً سريع الزوال، وكما أن الصفرة تنقسم إلى ثابتة كصفرة الذهب، وإلى سريعة الزوال كصفرة الوجع، وإلى ما هو بينهما كصفرة المريض، فكذلك صفات القلب تنقسم هذه الأقسام، والذي هو غير ثابت يسمى حالاً لأنه يحول على القرب وهذا جار في كل وصف من أوصاف القلب؛ وغرضنا الآن حقيقة الرجاء، فالرجاء أيضاً يتم من حال وعلم وعمل، فالعلم سبب يثمر الحال. والحال يقتضي العمل، وكان الرجاء اسماً من جملة الثلاثة، وبيانه: أن كل ما يلاقيك من مكروه ومحبوب فينقسم إلى موجود في الحال وإلى موجود فيما مضى وإلى منتظر في المستقبل، فإذا خطر ببالك موجود فيما مضى سمي ذكراً وتذكراً، وإن كان ما خطر بقلبك موجوداً في الحال سمي وجداً وذوقاً وإدراكاً، وإنما سمي وجداً لأنها حالة تجدها في نفسك، وإن كان قد خطر ببالك وجود شيء في المستقبل وغلب ذلك على قلبك سمي انتظاراً وتوقعاً، فإن كان المنتظر مكروهاً حصل منه ألم في القلب سمي خوفاً وإشفاقاً، وإن كان محبوباً حصل من انتظاره وتعلق القلب به وإخطار وجوده بالبال لذة في القلب وارتياح سمي ذل الارتياح رجاء، فالرجاء هو ارتياح القلب لانتظار ما هو محبوب عنده، ولكن ذلك المحبوب المتوقع لا بد وأن يكون له سبب، فإن كان انتظاره لأجل حصول أكثر أسبابه فاسم الرجاء عليه صادق، وإن كان ذلك انتظاراً مع انحزام أسبابه واضطرابها فاسم الغرور والحمق عليه أصدق من اسم الرجاء، وإن لم تكن الأسباب معلومة الوجود ولا معلومة الانتفاء فاسم التمني أصدق على انتظاره لأنه انتظر من غير سبب، وعلى كل حال فلا يطلق اسم الرجاء والخوف إلا على ما يتردد فيه، أما ما يقطع به فلا، إذ لا يقال: أرجو طلوع الشمس وقت الطلوع وأخاف غروبها وقت الغروب، لأن ذلك مقطوع به، نعم يقال: أرجو نزول المطر وأخاف انقطاعه، وقد علم أرباب القلوب أن الدنيا مزرعة الآخرة، والقلب كالأرض، والإيمان كالبذر فيه، والطاعات جارية مجرى تقليب الأرض وتطهيرها ومجرى حفر الأنهار وسياقة الماء إليها، والقلب المستهتر بالدنيا المستغرق بها كالأرض السبخة التي لا ينمو فيها البذر، ويوم القيامة يوم الحصاد، ولا يحصد أحد إلا ما زرع، ولا ينمو زرع إلا من بذر الإيمان، وقلما ينفع إيمان مع خبث القلب وسوء أخلاقه، كما لا ينمو بذر في أرض سبخة، فينبغي أن يقاس رجاء العبد المغفرة برجاء صاحب الزرع، فكل

من طلب أرضاً طيبة وألقى فيها بذراً جيداً غير عفن ولا مسوس، ثم أمده بما يحتاج إليه وهو سوق الماء إليه في أوقاته، ثم نقي الشوك عن الأرض والحشيش وكل ما يمنع نبات البذر أو يفسده، ثم جلس منتظراً من فضل الله تعالى دفع الصواعق والآفات المفسدة إلى أن يتم الزرع ويبلغ غايته: سمي انتظاره رجاء. وإن بث البذر في أرض صلبة سبخة مرتفعة لا ينصب إليها الماء ولم يشتغل بتعهد البذر أصلاً، ثم انتظر الحصاد منه: سمي انتظاره حمقاً وغروراً لا رجاء. وإن بث البذر في أرض طيبة لكن لا ماء لها وأخذ ينتظر مياه الأمطار حيث لا تغلب الأمطار ولا تمتنع أيضاً: سمي انتظاره تمنياً لا رجاء؛ فإذن اسم الرجاء إنما يصدق على انتظار محبوب تمهدت جميع أسبابه الداخلة تحت اختيار العبد ولم يبق إلا ما ليس يدخل تحت اختياره وهو فضل الله تعالى بصرف القواطع والمفسدات، فالعبد إذا بث بذر الإيمان، وسقاه بماء الطاعات، وطهر القلب عن شوك الأخلاق الرديئة، وانتظر من فضل الله تعالى تثبيته على ذلك إلى الموت وحسن الخاتمة المفضية إلى المغفرة: وكان انتظاره رجاءً حقيقياً محموداً في نفسه باعثاً له على المواظبة والقيام بمقتضى أسباب الإيمان في إتمام أسباب المغفرة إلى الموت: وإن قطع عن بذر الإيمان تعهده بماء الطاعات، وترك القلب مشحوناً برذائل الأخلاق وانهمك في طلب لذات الدنيا ثم انتظر المغفرة، فانتظاره حمق وغرور، قال صلى الله عليه وآله وسلم: "الأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الجنة". وقال تعالى: "فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غياً" وقال تعالى: "فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا". وذنم الله تعالى صاحب البستان إذ دخل جنته وقال: "ما أظن أن تبيد هذه أبداً وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيراً منها منقلباً".

فإذن العبد المجتهد في الطاعات المجتنب للمعاصي حقيق أن ينتظر من فضل الله تمام النعمة، وما تمام النعمة إلا بدخول الجنة. وأما العاصي فإذا تاب وتدارك جميع ما فرط منه من تقصير فحقيق بأن يرجو قبول التوبة. وأما قبل التوبة إذا كان كارهاً للمعصية تسوءه السيئة وتسره الحسنة وهو يذم نفسه ويلومها ويشتهي التوبة ويشناق إليها، فحقيق بأن يرجو من الله التوفيق للتوبة، لأن كراهيته المعصية وحرصه على التوبة يجري مجرى السبب الذي قد يفضي إلى التوبة، وإنما الرجاء بعد تأكد الأسباب، ولذلك قال تعالى: "إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله" معناه أولئك يستحقون أن يرجوا رحمة الله، وما أراد به تخصيص وجود الرجاء لأن غيرهم أيضاً قد يرجو؛ ولكن خصص بهم استحقاق الرجاء، فأما من ينهمك فيما يكرهه الله تعالى ولا يذم نفسه عليه ولا يعزم على التوبة والرجوع، فرجاءه المغفرة حمق كرجاء من بث البذر في أرض سبخة وعزم على أن لا يتعهده بسقي ولا تنقية. قال يحيى بن معاذ: من أعظم الاغترار عند التماس في الذنوب مع رجاء العفو من غير ندامة وتوقع القرب من الله تعالى بغير طاعة، وانتظار زرع الجنة ببذر النار، وطلب دار المطيعين بالمعاصي، وانتظار الجزاء بغير عمل، والتمنى على الله عز وجل مع الإفراط:

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها إن السفينة لا تجري على اليبس

فإذا عرفت حقيقة الرجاء ومظنته فقد علمت أنها حالة أثمرها العلم بجريان أكثر الأسباب، وهذه الحالة تثمر الجهد للقيام ببقية الأسباب على حسب الإمكان، فإن من حسن بذره وطابت أرضه وغزر ماؤه صدق رجاءه، فلا يزال يحمله صدق الرجاء على تفقد الأرض وتعهدتها وتحمية كل حشيش ينبت فيها فلا يفتر عن تعهدتها أصلاً إلى وقت الحصاد، وهذا لأن الرجاء يضاده اليأس، واليأس يمنع من التعهد، فمن عرف أن الأرض سبخة وأن الماء معوز وأن البذر لا ينبت، فيترك لا محالة تفقد الأرض والتعب في تعهدتها، والرجاء محمود لأنه باعث، واليأس مذموم وهو ضده لأنه صارف عن العمل، والخوف ليس بضد للرجاء بل هو رفيق له كما سيأتي بيانه، بل هو باعث آخر بطريق الرهبة كما أن الرجاء باعث بطريق الرغبة، فإذن حال الرجاء يورث طول المجاهدة بالأعمال والمواظبة على الطاعات كيفما تقلبت الأحوال، ومن آثاره التلذذ بدوام الإقبال على الله تعالى والتنعيم بمناجاته والتلطف في التملق له، فإن هذه الأحوال لا بد وأن تظهر على كل من يرجو ملكاً من الملوك أو شخصاً من الأشخاص، فكيف لا يظهر ذلك في حق الله تعالى؟ فإن كان لا يظهر فليستدل به على الحرمان عن مقام الرجاء والنزول في حضيض الغرور والتمنى فهذا هو البيان لحال الرجاء ولما أثمره من العلم ولما استثمر منه من العمل، ويدل على إثمارة لهذه الأعمال حديث زيد الخيل، إذ قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: جئت لأسألك عن علامة الله فيمن يريد وعلامته فيمن لا يريد؟ فقال: "كيف أصبحت؟" قال: أصبحت أحب الخير وأهله، وإذا قدرت على شيء منه سارعت إليه وأيقنت بثوابه، وإذا فاتني منه شيء حزنت عليه وحننت إليه. فقال: "هذه علامة الله فيمن يريد ولو أرادك للأخرى هياك لها ثم لا يبالي في أي أوديتها هلكت"، فقد ذكر صلى الله عليه وسلم علامة من أريد به الخير، فمن ارتجى أن يكون مراداً بالخير من غير هذه العلامات فهو مغرور.

بيان فضيلة الرجاء والترغيب فيه

اعلم أن العمل على الرجاء أعلى منه على الخوف، لأن أقرب العباد إلى الله تعالى أحبه لهم، والحب يغلب الرجاء، واعتبر ذلك بملكين يخدم أحدهما خوفاً من عقابه والآخر رجاءاً لثوابه، ولذلك ورد في الرجاء وحسن الظن رغائب لا سيما في وقت الموت: قال تعالى "لا تقنطوا من رحمة الله" فحرم أصل اليأس. وفي أخبار يعقوب عليه السلام أن الله تعالى أوحى إليه: أتدري لم فرقت بينك وبين يوسف؟ لأنك قلت أخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون لم خفت الذئب ولم ترجني؟ ولم نظرت إلى غفلة أخوته ولم تنظر إلى حظي له. وقال صلى الله عليه وسلم: "لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله تعالى". وقال صلى الله عليه وسلم: "يقول الله عز وجل: أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء".

ودخل صلى الله عليه وسلم على رجل وهو في النزاع فقال: "كيف تجدك؟" فقال: أجدني أخاف ذنوبي وأرجو رحمة ربي. فقال صلى الله عليه وسلم: "ما اجتمعا في قلب عبد في هذا الموطن إلا أعطاه الله ما رجا وأمنه مما يخاف".

وقال علي رضي الله عنه لرجل أخرجه الخوف إلى القنوط لكثرة ذنوبه: يا هذا يأسك من رحمة الله أعظم من ذنوبك.

وقال سفيان: من أذنب ذنباً فعلم أن الله تعالى قدره عليه ورجاء غفرانه غفر الله له ذنبه. قال: لأن الله عز وجل عير قوماً فقال: "وذلك ظنكم الذي ظننتم بربكم أراكم"، وقال تعالى: "وظننتم ظن السوء وكنتم قوماً بوراً".

وقال صلى الله عليه وسلم: "إن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة: ما منعك إذ رأيت المنكر أن تتكره؟ فإن لقته الله حجته قال: يا رب رجوتك وخفت الناس. قال: فيقول الله تعالى: قد غفرت لك".

وفي الخبر الصحيح: أن رجلاً كان يداين الناس فيسامح الغني ويتجاوز عن المعسر فلقى الله ولم يعمل خيراً قط، فقال الله عز وجل: من أحق بذلك منا، فعفا عنه لحسن ظنه ورجائه أن يعفو عنه مع إفلاسه عن الطاعات.

وقال تعالى: "إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية يرجون تجارة لن تبور".

ولما قال صلى الله عليه وسلم: "لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً ولخرجتم إلى الصعدات تلدمون صدوركم وتجأرون إلى ربكم، فهبط جبريل عليه السلام فقال: إن ربك يقول لك لم تقنط عبادي؟ فخرج عليهم ورجاهم وشوقهم.

وفي الخبر: إن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام: أحبني وأحب من يحبني وحببني إلى خلقي. فقال: يا رب، كيف أحبيك إلى خلقك؟ قال: اذكرني بالحسن الجميل واذكر الأثني وإحساني وذكرهم ذلك فإنهم لا يعرفون مني إلا الجميل.

ورثي أبان بن أبي عياش في النوم وكان يكثر ذكر أبواب الرجاء فقال: أوقفني الله تعالى بين يديه فقال: ما الذي حملك على ذلك؟ فقلت: أردت أن أحبيك إلى خلقك، فقال: قد غفرت لك.

ورثي يحيى بن أكثم بعد موته في النوم، فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال: أوقفني الله بين يديه وقال: يا شيخ السوء، فعلت وفعلت، وقال: فأخذني من الرعب ما يعلم الله، ثم قلت: يا رب ما هكذا حدثت عنك، فقال: وما حدثت عني؟ فقلت: حدثني عبد الرزاق عن معمر عن الزهري عن أنس عن نبيك صلى الله عليه وسلم عن جبريل عليه السلام أنك قلت: أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء، وكنت أظن بك أن لا تعذبني، فقال الله عز وجل: صدق جبريل وصدق نبيي، وصدق أنس، وصدق الزهري، وصدق معمر، وصدق عبد الرزاق وصدققت. قال: فألبست ومشى بين يدي الولدان إلى الجنة، فقلت: يا لها من فرحة.

وفي الخبر: "أن رجلاً من بني إسرائيل كان يقنط الناس ويشدد عليهم، قال: فيقول له الله تعالى يوم القيامة: اليوم أوبسك من رحمتي كما كنت تقنط عبادي منها".

وقال صلى الله عليه وسلم: " إن رجلاً يدخل النار فيمكث فيها ألف سنة ينادي: يا حنان يا منان، فيقول الله تعالى لحبريل: اذهب فانتني بعدي. قال فيجيء به فيوقفه على ربه فيقول الله تعالى: كيف وجدت مكانك؟ فيقول: شر مكان. قال: فيقول ربه إلى مكانه. قال: فيمشي إلى ورائه، فيقول الله عز وجل: إلى أي شيء تلتفت! فيقول: لقد رجوت أن لا تعيدني إليها بعد إذ أخرجتني منها، فيقول الله تعالى: اذهبوا به إلى الجنة" فدل هذا على أن رجاءه كان سبب نجاته، نسأل الله حسن التوفيق بلطفه وكرمه.

بيان دواء الرجاء والسبيل الذي يحصل منه حال الرجاء ويغلب

اعلم أن هذا الدواء يحتاج إليه أحد رجلين: إما رجل غلب عليه اليأس فترك العبادة، وإما رجل غلب عليه الخوف فأسرف في المواظبة على العبادة حتى أضر بنفسه وأهله، وهذا رجلان مائلان عن الاعتدال إلى طرفي الإفراط والتفريط، فيحتاجان إلى علاج يردهما إلى الاعتدال؛ فأما العاصي المغرور المتمني على الله مع الإعراض عن العبادة واقتحام المعاصي فأدوية الرجاء تنقلب سموماً مهلكة في حقه وتنزل منزلة العسل الذي هو شفاء لمن غلب عليه البرد، وهو سم مهلك لمن غلب عليه الحرارة، بل المغرور لا يستعمل في حقه إلا أدوية الخوف والأسباب المهيجة له، فلهذا يجب أن يكون واعظ الخلق متلطفاً ناظراً إلى مواقع العلل معالجاً لكل علة بما يضادها لا بما يزيد فيها، فإن المطلوب هو العدل والقصد في الصفات والأخلاق كلها وخير الأمور أوسطها، فإذا جاوز الوسط إلى أحد الطرفين عولج بما يرد به إلى الوسط لا بما يزيد في ميله عن الوسط، وهذا الزمان زمان لا ينبغي أن يستعمل فيه مع الخلق أسباب الرجاء، بل المبالغة في التخويف أيضاً تكاد أن لا تردهم إلى جادة الحق وسنن الصواب، فأما ذكر أسباب الرجاء فيهلكهم ويرديهم بالكلية، ولكنها لما كانت أخف على القلوب وألذ عند النفوس، ولم يكن غرض الوعاظ إلا استمالة القلوب واستنطاق الخلق بالثناء كيفما كانوا مالوا إلى الرجاء حتى ازداد الفساد فساداً وازداد المنهكون في طغيانهم تمادياً.

قال علي كرم الله وجهه: إنما العالم الذي لا يقنط الناس من رحمة الله تعالى ولا يؤمنهم من مكر الله. ونحن نذكر أسباب الرجاء لتستعمل في حق الأيسر أو فيمن غلب عليه الخوف اقتداءً بكتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم فإنهما مشتملان على الخوف والرجاء جميعاً لأنهما جامعان لأسباب الشفاء في حق أصناف المرضى ليستعمله العلماء الذين هم ورثة الأنبياء بحسب الحاجة استعمال الطبيب الحاذق لا استعمال الأخرق الذي يظن أن كل شيء من الأدوية صالح لكل مريض كيفما كان. وحال الرجاء يغلب بشيئين: أحدهما الاعتبار والآخر استقراء الآيات والأخبار والآثار.

أما الاعتبار فهو أن يتأمل جميع ما ذكرناه في أصناف النعم من كتاب الشكر حتى إذا علم لطائف نعم الله تعالى لعباده في الدنيا وعجائب حكمه التي راعاها في فطرة الإنسان حتى أعد له في الدنيا كل ما هو ضروري له في دوام الوجود كالأطعمة والشراب وما هو محتاج إليه كالأصابع والأظفار وما هو زينة له كاستقواس الحاجبين واختلاف ألوان العينين وحمرة الشفتين وغير ذلك مما كان لا يتلذذ بفقد غرض مقصود، وإنما كان يفوت به مزية جمال، فالعناية الإلهية إذا لم تقصر عن عبادته في أمثال هذه الدقائق حتى لم يرض لعباده أن تفوتهم المزايد والمزايا في الزينة والحاجة كيف يرضى بسياقهم إلى الهلاك المؤبد، بل إذا نظر الإنسان نظراً شافياً علم أن أكثر الخلق قد هيئ له أسباب السعادة في الدنيا، حتى إنه يكره الانتقال من الدنيا بالموت، وإن أخبر بأنه لا يعذب بعد الموت أبداً مثلاً أولاً يحشر أصلاً فليست كراحتهم للعدم إلا لأن أسباب النعم أغلب لا محالة، وإنما الذي يتمنى الموت نادر، ثم لا يتمناه إلا في حال نادرة ورافعة هاجمة غريبة، فإذا كان حال أكثر الخلق في الدنيا الغالب عليه الخير والسلامة فسنة الله لا تجد لها تبديلاً، فالغالب أن أمر الآخرة هكذا يكون لأن مدبر الدنيا والآخرة واحد وهو غفور رحيم لطيف بعباده متعطف عليهم، فهذا إذا توّمل حق التأمل قوي به أسباب الرجاء، ومن الاعتبار أيضاً النظر في حكمة الشريعة وسنتها في مصالح الدنيا ووجه الرحمة للعباد بها، حتى كان بعض العارفين يرى آية المدائنة في البقرة من أقوى أسباب الرجاء. فقيل له: وما فيها من الرجاء؟ فقال: الدنيا كلها قليل، ورزق الإنسان منها قليل، والدين قليل عن رزقه، فانظر كيف أنزل الله تعالى فيه أطول آية ليهدي عبده إلى طريق الاحتياط في حفظ دينه، فكيف لا يحفظ دينه الذي لا عوض له منه؟ الفن الثاني: استقراء الآيات والأخبار، فما ورد في الرجاء خارج عن الحصر، أما الآيات فقد قال تعالى " قل يا عبادي الذي أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم ". وفي قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم " ولا يبالي إنه هو الغفور الرحيم " وقال تعالى " والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض ".

وأخبر تعالى أن النار أَعَدَّهَا لِأَعْدَائِهِ، وَإِنَّمَا خَوْفُ بِهَا لِأَوْلِيَاءِهِ فَقَالَ " لَهْمُ مِنْ فَوْقِهِمْ ظِلٌّ مِنَ النَّارِ وَمَنْ تَحْتَهُمْ ظِلٌّ ذَلِكَ يَخُوفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ ".

وقال تعالى: " واتقوا النار التي أعدت للكافرين ".

وقال تعالى " فأندرتكم ناراً تُلْطِئُ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى الَّذِي كَذَبَ وَتَوَلَّى ".

وقال عز وجل: " وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم ".

ويقال إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يزل يسأل في أمته حتى قيل له: أما ترضى وقد أنزلت عليك هذه الآية " وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم ".

وفي تفسير قوله تعالى: " ولسوف يعطيك ربك فترضى " قال: " لا يرضى محمد وواحد من أمته في النار ".

وكان أبو جعفر محمد بن علي يقول: أنتم أهل العراق تقولون أرجى آية في كتاب الله عز وجل قوله " قل يا عبادي الذي أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله " الآية، ونحن أهل البيت نقول أرجى آية في كتاب الله تعالى قوله تعالى: " ولسوف يعطيك ربك فترضى " وأما الأخبار فقد روى أبو موسى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: " أممي أمة مرحومة لا عذاب عليها في الآخرة عجل الله عقابها في الدنيا: الزلازل والفتن، فإذا كان يوم القيامة دفع إلى كل رجل من أممي رجل من أهل الكتاب فقيل: هذا فداؤك من النار ".

وفي لفظ آخر " يأتي كل رجل من هذه الأمة بيهودي أو نصراني إلى جهنم فيقول: هذا فدائي من النار فيلقى فيها ".

وقال صلى الله عليه وسلم: " الحمى من قبيح جهنم وهي حظ المؤمن من النار ".

وروي في تفسير قوله تعالى " يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه " أن الله تعالى أوحى إلى نبيه عليه الصلاة والسلام: " إنني أجعل حساب أمتك إليك. قال " لا يا رب أنت أرحم بهم مني " فقال: " إذن لا نخزيك فيهم ".

وروي عن أنس: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل ربه في ذنوب أمته فقال: " يا رب اجعل حسابهم إلي لئلا يطلع على مساويهم غيري " فأوحى الله تعالى إليه: هم أمتك وهم عبادي، وأنا أرحم بهم منك، لا أجعل حسابهم إلي غيري لئلا تنتظر إلي مساويهم أنت ولا غيرك.

وقال صلى الله عليه وسلم: " حياتي خير لكم وموتي خير لكم، أما حياتي فأسن لكم السنن وأشرع لكم الشرائع، وأما موتي فإن أعمالكم تعرض علي فما رأيت منها حسناً حمدت الله عليه، وما رأيت منها سيئاً استغفرت الله تعالى لكم ".

وقال صلى الله عليه وسلم يوماً: " يا كريم العفو " فقال جبريل عليه السلام: أتدري ما تفسير: يا كريم العفو؟ هو إن عفا عن السيئات برحمته بدلها حسنات بكرمه.

وسمع النبي صلى الله عليه وسلم رجلاً يقول: اللهم إني أسألك تمام النعمة، فقال: " هل تدري ما تمام النعمة؟ قال: لا، قال: " دخول الجنة ".

قال العلماء: قد أتم الله علينا نعمته برضاه الإسلام لنا إذ قال تعالى " وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً ".

وفي الخبر " إذا أذنب العبد ذنباً فاستغفر الله يقول الله عز وجل لملائكته: انظروا إلى عبدي أذنب ذنباً فعلم أن له رباً يغفر الذنوب ويأخذ بالذنب، أشهدكم أنني قد غفرت له ".

وفي الخبر "لو أذنب العبد حتى تبلغ ذنوبه عنان السماء غفرتها له ما استغفرتني ورجاني".

وفي الخبر "لو لقيني عبدي بقراب الأرض ذنوباً لقيته بقراب الأرض مغفرة".

وفي الحديث "أن الملك ليرفع القلم عن العبد إذا أذنب ست ساعات، فإن تاب واستغفر لم يكتبه عليه وإلا كتبها سيئة".

وفي لفظ آخر: "فإذا كتبها عليه وعمل حسنة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال وهو أمير عليه: ألق هذه السيئة حتى ألقى من حسناته واحدة تضعيف العشر وأرفع له تسع حسنات، فتلقى عنه السيئة". وروى أنس في حديث أنه عليه الصلاة والسلام قال: "إذا أذنب العبد ذنباً كتب عليه" فقال أعرابي: وإن تاب عنه؟ قال: "محي عنه" قال: فإن عاد؟ قال النبي صلى الله عليه وسلم: "يكتب عليه" قال الأعرابي: فإن تاب؟ قال: "محي من صحيفته" قال: إلى متى؟ قال: "إلى أن يستغفر ويتوب إلى الله عز وجل، إن الله لا يمل من المغفرة حتى يمل العبد من الاستغفار؛ فإذا هم العبد بحسنة كتبها صاحب اليمين حسنة قبل أن يعملها، فإن عملها كتبت عشر حسنات ثم يضاعفها الله سبحانه وتعالى إلى سبعمائة ضعف، وإذا هم بخطيئة لم تكتب عليه فإذا عملها كتبت خطيئة واحدة ووراءها حسن عفو الله عز وجل".

وجاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، إني لا أصوم إلا الشهر لا أزيد عليه، ولا أصلي إلا الخمس لا أزيد عليها، وليس لله في مالي صدقة ولا حج ولا تطوع: أين أنا إذا مت؟ فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: "نعم معي، إذا حفظت قلبك من اثنين: الغل، والحسد، ولسانك من اثنين: الغيبة والكذب. وعينيك من اثنين: النظر إلى ما حرم الله، وأن تزدرى بهما مسلماً. دخلت معي الجنة على راحتى هاتين". وفي الحديث الطويل لأنس: أن الأعرابي قال: يا رسول الله، من يلي حساب الخلق؟ فقال: "الله تبارك وتعالى" قال هو بنفسه؟ قال: "نعم" فتبسم الأعرابي، فقال صلى الله عليه وسلم: "مم ضحكت يا أعرابي؟" فقال: إن الكريم إذا قدر عفا، وإذا حاسب سامح، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "صدق الأعرابي، ألا لا كريم أكرم من الله تعالى، هو أكرم الأكرمين" ثم قال: "فقه الأعرابي" وفيه أيضاً: "إن الله تعالى شرف الكعبة وعظمها ولو أن عبداً هدمها حجراً حجراً ثم أحرقها ما بلغ جرم من استخف بولي من أولياء الله تعالى" قال الأعرابي: ومن أولياء الله تعالى؟ قال: "المؤمنون كلهم أولياء الله تعالى، أما سمعت قول الله عز وجل: "الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور" وفي بعض الأخبار: "المؤمن أفضل من الكعبة" و "المؤمن طيب طاهر" و "المؤمن أكرم على الله تعالى من الملائكة".

وفي الخبر "خلق الله تعالى جهنم من فضل رحمته سوطاً يسوق الله به عباده إلى الجنة".

وفي خبر آخر: "يقول الله عز وجل: إنما خلقت الخلق ليربحوا علي ولم أخلقهم لأربح عليهم".

وفي حديث أبي سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما خلق الله تعالى شيئاً إلا جعل له ما يغلبه وجعل رحمته تغلب غضبه".

وفي الخبر المشهور: "إن الله تعالى كتب على نفسه الرحمة قبل أن يخلق الخلق: إن رحمتي تغلب غضبي". وعن معاذ بن جبل وأنس بن مالك أنه صلى الله عليه وسلم قال: "من قال لا إله إلا الله دخل الجنة". و "من كان آخر كلامه لا إله إلا الله لم تمسه النار". و "من لقي الله لا يشرك به شيئاً حرمت عليه النار". و "لا يدخلها من في قلبها مثقال ذرة من إيمان".

وفي خبر آخر "لو علم الكافر سعة رحمة الله ما آيس من جنته أحد". ولما تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى "إن زلزلة الساعة شيء عظيم" قال: "أندرون أي يوم هذا؟ هذا يوم يقال لأدم عليه الصلاة والسلام: قم فابعث بعث النار من ذريتك، فيقول: كم؟ فيقال: من كل ألف تسعمائة وتسع وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة. قال: فأبلس القوم ويكون وتعطلوا يومهم عن الاشتغال والعمل، فخرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: "ما لكم

لا تعملون " فقالوا: ومن يشتغل بعمل بعد ما حدثتنا بهذا؟ فقال: " كم أنتم في الأمم؟ أين تأويل وثاريت ومنسك ويأجوج ومأجوج أم لا يحصيتها إلا الله تعالى، إنما أنتم في سائر الأمم كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود، والرقمة في ذراع الدابة" فانظر كيف كان الخوف يسوق الخلق بسيط الخوف ويقودهم بأزمة الرجاء إلى الله تعالى، إذ ساقهم بسيط الخوف أولاً، فلما خرج ذلك بهم عن حد الاعتدال إلى إفراط اليأس داوهم بدواء الرجاء وردهم إلى الاعتدال، والقصد والآخر لم يكن مناقضاً للأول ولكن ذكر في الأول ما رآه سبباً للشفاء واقتصر عليه، فلما احتاجوا إلى المعالجة بالرجاء ذكر تمام الأمر، فعلى الواعظ أن يقتدي بسيد الوعاظ فيتلطف في استعمال أخبار الخوف والرجاء بحسب الحاجة بعد ملاحظة العلل الباطنة، وإن لم يراع ذلك كان ما يفسد بوعظه أكثر مما يصلحه، وفي الخبر " لو لم تذنبوا لخلق الله خلقاً يذنبون فيغفر لهم" وفي لفظ آخر " لذهب بكم وجاء بخلق يذنبون فيغفر لهم إنه هو الغفور الرحيم " .

وفي الخبر " لو لم تذنبوا لخشيت عليكم ما هو شر من الذنوب" قيل: وما هو؟ قال: "العجب".

وقال صلى الله عليه وسلم: "والذي نفسي بيده الله أرحم بعبده المؤمن من الوالدة الشفيقة بولدها".
وفي الخبر " ليغفرن الله تعالى يوم القيامة مغفرة ما خطرت على قلب أحد، حتى إن إبليس ليتناول لها رجاء أن تصيبه".

وفي الخبر " إن الله تعالى مائة رحمة ادخر منها عنده تسعاً وتسعين رحمة وأظهر منها في الدنيا رحمة واحدة فيها يتراحم الخلق، فتحن الوالدة على ولدها وتعطف البهيمة على ولدها. فإذا كان يوم القيامة ضم هذه الرحمة إلى التسع والتسعين ثم بسطها على جميع خلقه وكل رحمة منها طباق السموات والأرض. قال: فلا يهلك على الله يومئذ إلا هالك".

وفي الخبر " ما منكم من أحد يدخله عمله الجنة ولا ينجيهِ من النار " قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: " ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته".

وقال عليه أفضل الصلاة والسلام: "اعملوا وابتشروا واعلموا أن أحداً لن ينجيهِ عمله".

وقال صلى الله عليه وسلم: " إنني اختبأت شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي أترونها للطيعين المتقين بل هي للمتلوئين المخلطين".

وقال عليه الصلاة والسلام: "بعثت بالحنيفية السمحة السهلة".

وقال صلى الله عليه وسلم وعلى كل عبد مصطفى: " أحب أن يعلم أهل الكتابين أن في ديننا سماحة". ويدل على معناه استجابة الله تعالى للمؤمنين في قولهم "ولا تحمل علينا إصراً".

وقال تعالى: " ويضع عنه إصراً والأغلال التي كانت عليهم".

وروى محمد بن الحنفية عن علي رضي الله تعالى عنهما أنه قال: لما نزل قوله تعالى "فاصفح الصفاة الجميل" قال: "يا جبريل وما الصفاة الجميل؟" قال عليه السلام: إذا عفوت عن ظلمك فلا تعاتبه، فقال: "يا جبريل فالله تعالى أكرم من أن يعاتب من عفا عنه " فبكى جبريل وبكى النبي صلى الله عليه وسلم، فبعث الله تعالى إليهما ميكائيل عليه السلام وقال: إن ربكما يقرنكما السلام ويقول: كيف أعاتب من عفوت عنه؛ هذا ما لا يشبه كرمي".
والأخبار الواردة في أسباب الرجاء أكثر من أن تحصى. وأما الآثار: فقد قال علي كرم الله وجهه: من أذنب ذنباً فستره الله عليه في الدنيا فالله أكرم من أن يكشف ستره في الآخرة، ومن أذنب ذنباً فعوقب عليه في الدنيا فالله تعالى أعدل من يثني عفوبته على عبده في الآخرة.

وقال الثوري: ما أحب أن يجعل حسابي إلى أبي لأنني أعلم أن الله تعالى أرحم بي منهما.

وقال بعض السلف: المؤمن إذا عصى الله تعالى عن أبصار الملائكة كيلا تراه فتشهد عليه. وكتب محمد بن صعب إلى أسود بن سالم بخطه: إن العبد إذا كان مسرفاً على نفسه فرفع يديه يدعو ويقول يا رب حجبت الملائكة صوته، وكذا الثانية والثالثة، حتى إذا قال الرابعة: يا ربي، قال الله تعالى: حتى متى تحجبون عني صوت عبدي، قد علم عبدي أنه ليس له رب يغفر له الذنوب غيري، أشهدكم أنني قد غفرت له.

وقال إبراهيم بن أدهم رحمة الله عليه: خلالي الطواف ليلة وكانت ليلة مطيرة مظلمة، فوقفت في الملتزم عند الباب فقلت: يا رب اعصمني حتى لا أعصيك أبداً، فهتف بي هاتف من البيت: يا إبراهيم أنت تسألني العصمة وكل عبادي المؤمنين يطلبون مني ذلك، فإذا عصمتهم فعلى من أتفضل؟ ولمن أغفر؟ وكان الحسن يقول: لو لم يذنب المؤمن لكان يطير في ملكوت السموات ولكن الله تعالى قمعه بالذنوب.

وقال الجنيد رحمه الله تعالى: إن بدت عين من الكرم ألحقت المسيئين بالمحسنين.

ولقي مالك بن دينار أبانا فقال له: إلى كم تحدث الناس بالرخص؟ فقال: يا أبا يحيى إنني لأرجو أن ترى من عفو الله يوم القيامة ما تخرق له كساءك هذا من الفرح.

وفي حديث ربي بن حراش عن أخيه - وكان من خيار التابعين وهو ممن تكلم بعد الموت - قال: لما مات أخي سجي بثوبه وألقيناه على نعشه، فكشف الثوب عن وجهه واستوى قاعداً، وقال إنني لقيت ربي عز وجل فحياني بروح وريحان وربّي غير غضبان، وإنّي رأيت الأمر أيسر مما تظنون فلا تفتروا، وإن محمداً صلى الله عليه وسلم ينتظرنّي وأصحابه حتى أرجع إليهم. قال: ثم طرح نفسه فكأنها كانت حصاة وقعت في طشت، فحملناه ودفناه.

وفي الحديث أن رجلين من بني إسرائيل تواخيا في الله تعالى، فكان أحدهما يسرف على نفسه، وكان الآخر عابداً وكان يعظه ويزجره، فكان يقول: دعني وربّي، أبعثت علي رقيباً، حتى رآه ذات يوم على كبيرة فغضب فقال: لا يغفر الله لك، قال: فيقول الله تعالى يوم القيامة: أيسطيع أحد أن يحظر رحمتي على عبدي، اذهب أنت فقد غفرت لك، ثم يقول للعابد: وأنت فقد أوجبت لك النار. قال: فوالذي نفسي بيده لقد تكلم بكلمة أهلك دنياه وأخرته. وروي أيضاً أن لصاً كان يقطع الطريق في بني إسرائيل أربعين سنة، فمر عليه عيسى عليه السلام وخلفه عابد من عباد إسرائيل من الحواريين، فقال اللص في نفسه: هذا نبي الله يمر وإلى جنبه حواريه لو نزلت فكنت معهما ثالثاً، قال: فنزل يريد أن يدنو من الحواري ويزدري نفسه تعظيماً للحواري ويقول في نفسه: مثلي لا يمشي إلى جنب هذا العابد، قال: وأحس الحواري به، فقال في نفسه: هذا يمشي إلى جانبي، فضم نفسه ومشى إلى عيسى عليه الصلاة والسلام، فمشى بجنبه فبقي اللص خلفه، فأوحى الله تعالى إلى عيسى عليه الصلاة والسلام: قل لهما ليستأنفا العمل ففان كلهم الأصلح لهم غلبة الخوف، بشرط أن لا يخرجهم إلى اليأس وترك العمل وقطع الطمع من المغفرة فيكون ذلك سبباً للتكاسل عن العمل وداعياً إلى الانهماك في المعاصي فإن ذلك قنوط وليس بخوف، إنما الخوف هو الذي يحث على العمل ويكدر جميع الشهوات ويزعج القلب عن الركون إلى الدنيا ويدعوه إلى التجافي عن دار الغرور فهو الخوف المحمود، دون حديث النفس الذي لا يؤثر في الكف والحث ودون اليأس الموجب للقنوط. وقد قال يحيى بن معاذ: من عبد الله تعالى بمحض الخوف غرق في بحار الأفكار، ومن عبده بمحض الرجاء تاه في مغارة الاغترار، ومن عبده بالخوف والرجاء في محجة الادكار. وقال مكحول الدمشقي: من عبد الله بالخوف فهو حروري، ومن عبده بالرجاء فهو مرجي، ومن عبده بالمحبة فهو زنديق، ومن عبد بالخوف والرجاء والمحبة فهو موحد. فإن لا بد من الجمع بين هذه الأمور، وغلبة الخوف هو الأصلح ولكن قبل الإشراف على الموت، أما عند الموت فالأصلح غلبة الرجاء وحسن الظن، لأن الخوف جار مجرى السوط الباعث على العمل وقد انقضى وقت العمل، فالمشرف على الموت لا يقدر على العمل ثم لا يطيق أسباب الخوف، فإن ذلك يقطع نياط قلبه ويعين على تعجيل موته، وأما روح الرجاء فإنه يقوي قلبه ويحبب إليه ربه الذي إليه رجأوه، ولا ينبغي أن يفارق أحد الدنيا إلا محباً لله تعالى للقاء الله تعالى، فإن من أحب لقاء الله تعالى أحب الله لقاءه، والرجاء تقارنه المحبة فمن ارتجى كرمه فهو محبوب، والمقصود من العلوم والأعمال كلها معرفة الله تعالى حتى تثمر المعرفة المحبة، فإن المصير إليه والقوم بالموت عليه، ومن قدم على محبوبه عظم سروره بقدر محبته، ومن فارق محبوبه اشتدت محنته وعذابه، فمهما كان القلب الغالب عليه عند الموت حب الأهل والولد والمال والمسكن والعقار والرفقاء والأصحاب: فهذا رجل محابه كلها في الدنيا، فالدنيا جنته، إذ الجنة عبارة عن البقعة الجامعة لجميع المحاب، فموته خروج من الجنة وحيلولة بينه وبين ما يشتهي، ولا يخفى حال من يحال بينه وبين ما يشتهي، فإذا لم يكن له محبوب سوى الله تعالى وسوى ذكره

ومعرفته والفكر فيه والدنيا وعلائقها شاغلة له عن المحبوب فالدنيا إذن سجنه، لأن السجن عبارة عن البقعة المانعة للمحبوس عن الاسترواح إلى محابه، فموته قدوم على محبوه وخلاص من السجن ولا يخفى حال من أفلت من السجن وخلي بينه وبين محبوه بلا مانع ولا مكر، فهذا أول ما يلقاه كل من فارق الدنيا عقيب موته من الثواب والعقاب فضلاً عما أعده الله لعباده الصالحين مما لم تره عين ولا تسمعه أذن ولا خطر على قلب بشر، وفضلاً عما أعده الله تعالى للذين استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة ورضوا بها واطمأنوا إليها من الأتكال والسلاسل والأغلال وضروب الخزي والنكال، فنسأل الله تعالى أن يتوفانا مسلمين ويلحقنا بالصالحين، ولا مطمع في إجابة هذا الدعاء إلا باكتساب حب الله تعالى، ولا سبيل إليه إلا بإخراج حب غيره من القلب وقطع العلائق عن كل ما سوى الله تعالى من جاه ومال ووطن، فالأولى أن تدعو بما دعا به نبينا صلى الله عليه وسلم إذ قال: " اللهم ارزقني حبك وحب من أحبك وحب ما يقربني إلى حبك واجعل حبك أحب إلي من الماء البارد" والغرض أن غلبة الرجاء عند الموت أصلح لأنه أجلب للمحبة، وغلبة الخوف قبل الموت أصلح لأنه أحرق لنار الشهوات وأقمع لمحبة الدنيا عن القلب، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: " لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بربه". وقال تعالى: " أنا عند ظن عبدي بي فيظن بي ما شاء". ولما حضرت سليمان التيمي الوفاة قال لابنه: يا بني حدثني بالرخص واذكر لي الرجاء حتى ألقى الله على حسن الظن به. وكذلك لما حضرت الثوري الوفاة واشتد جزعه جمع العلماء حوله يرجونه. وقال أحمد بن حنبل رضي الله تعالى عنه لابنه عند الموت: اذكر لي الأخبار التي فيها الرجاء وحسن الظن، والمقصود من ذلك كله أن يحبب الله تعالى إلى نفسه، ولذلك أوحى الله تعالى إلى داود عليه الصلاة والسلام: أن حبيبي إلى عبادي، فقال: بماذا؟ قال: بأن تذكر لهم الآتي ونعماتي. فإذن غاية السعادة أن يموت محباً لله تعالى، وإنما تحصل المحبة بالمعرفة بإخراج حب الدنيا من القلب حتى تصير الدنيا كلها كالسجن المانع من المحبوب، ولذلك رأى بعض الصالحين أبا سليمان الداراني في المنام وهو يطير، فسأله فقال: الآن أفلت، فلما أصبح سأل عن حاله فقيل له: إنه مات البارحة.

بيان الدواء الذي يستجلب حال الخوف

اعلم أن ما ذكرناه في حال الصبر وشرحناه في كتاب الصبر والشكر هو كاف في هذا الغرض، لأن الصبر لا يمكن إلا بعد حصول الخوف والرجاء، لأن أول مقامات الدين اليقين الذي هو عبارة عن قوة الإيمان بالله تعالى وباليوم الآخر والجنة والنار، وهذا اليقين بالضرورة يهيج الخوف من النار والرجاء للجنة والرجاء والخوف يقويان على الصبر، فإن الجنة قد حفت بالمكاره فلا يصبر على تحملها إلا بقوة الرجاء؛ والنار قد حفت بالشهوات فلا يصبر على قمعها إلا بقوة الخوف، ولذلك قال علي كرم الله وجهه: من اشتاق إلى الجنة سلا عن الشهوات، ومن أشفق من النار رجع عن المحرمات. ثم يؤدي مقام الصبر المستفاد من الخوف والرجاء إلى مقام المجاهدة والتجرد لذكر الله تعالى والفكر على الدوام، ويؤدي دوام الذكر إلى الأُنس ودوام الفكر إلى كمال المعرفة، ويؤدي كمال المعرفة والأُنس إلى المحبة ويتبعها مقام الرضا والتوكل وسائر المقامات، فهذا هو الترتيب في سلوك منازل الدين، وليس بعد أصل اليقين مقام سوى الخوف والرجاء، ولا بعدهما مقام سوى الصبر، وبه المجاهدة والتجرد لله ظاهراً وباطناً، ولا مقام بعد المجاهدة لمن فتح له الطريق إلا الهداية والمعرفة، ولا مقام بعد المعرفة إلا المحبة والأُنس، ومن ضرورة المحبة الرضا يفعل المحبوب والثقة بعنايته وهو التوكل، فإذن فيما ذكرناه في علاج الصبر كفاية، ولكننا نفرد الخوف بكلام جملي فنقول: الخوف يحصل بطريقتين مختلفتين أحدهما أعلى من الآخر، ومثاله: أن الصبي إذا كان في بيت فدخل عليه سبع أو حية ربما كان لا يخاف، وربما مد اليد إلى الحية ليأخذها ويلعب بها، ولكن إذا كان معه أبوه وهو عاقل خاف من الحية وهرب منها، فإذا نظر الصبي إلى أبيه وهو ترتعد فرائصه ويحتمل في الهرب منها قام معه وغلب عليه الخوف ووافق في الهرب؛ فخوف الأب عن بصيرة ومعرفة بصفة الحية وسمها وخاصيتها وسطوة السبع وبطشه وقلة مبالاته، وأما خوف الابن فايمنه بمجرد التقليد لأنه يحسن الظن بأبيه ويعلم أنه لا يخاف إلا من سبب مخوف في نفسه، فيعلم أن السبع مخوف ولا يعرف وجهه، وإذا عرفت هذا المثال فاعلم أن الخوف من الله تعالى على مقامين: أحدهما الخوف من عذابه، والثاني الخوف منه؛ فأما الخوف منه فهو خوف من العلماء وأرباب القلوب العارفين من صفاته ما يقتضي الهيبة والخوف والحدز المطلعين على سر قوله تعالى: " ويحذركم الله نفسه " وقوله عز وجل " اتقوا الله حق تقاته " وأما الأول فهو خوف عموم الخلق، وهو حاصل بأصل الإيمان بالجنة والنار، وكونهما جزاءين على الطاعة والمعصية وضعفه بسبب الغفلة وسبب ضعف الإيمان، وإنما تزول الغفلة بالتذكير والوعظ وملازمة الفكر في أهوال يوم القيامة وأصناف العذاب في الآخرة، وتزول أيضاً بالنظر إلى الخائفين ومجالستهم ومشاهدة أحوالهم؛ فإن فانت المشاهدة فالسمع لا يخلو عن تأثير، وأما الثاني وهو الأعلى فإن يكون الله هو المخوف، أعني أن يخاف العبد الحجاب عنه ويرجو القرب منه. قال ذو النون رحمه الله تعالى: خوف النار عند خوف الفراق كقطرة قطرت في بحر لحي. وهذه خشية العلماء حيث قال تعالى " إنما يخشى الله من عباده العلماء " ولعموم المؤمنين أيضاً حظ من هذه الخشية، ولكن هو بمجرد التقليد أيضاً هو خوف الصبي من الحية تقليداً

لأبيه، وذلك لا يستند إلى بصيرة فلا جرم يضعف ويزول على قرب، حتى إن الصبي ربما يرى المعزم يقدم على أخذ الحياة فينظر إليه ويعتبر به فيتجراً على أخذها تقليداً له كما احترز من أخذها تقليداً لأبيه، والعقائد التقليدية ضعيفة في الغالب إلا إذا قويت بمشاهدة أسبابها المؤكدة لها على الدوام وبالمواظبة على مقتضاها في تكثير الطاعات، واجتناب المعاصي مدة طويلة على الاستمرار؛ فإذن من ارتقى إلى ذروة المعرفة وعرف الله تعالى خافه بالضرورة فلا يحتاج إلى علاج لجلب الخوف، كما أن من عرف السبع ورأى نفسه واقعاً في مخالفه لا يحتاج إلى علاج لجلب الخوف إلى قلبه بل يخافه بالضرورة شاء أم أبى، ولذلك أوحى الله تعالى إلى داود عليه الصلاة والسلام: خفني كما تخاف السبع الضاري. ولا حيلة في جلب الخوف من السبع الضاري إلا معرفة السبع ومعرفة الوقوع في مخالفه فلا يحتاج إلى خيلة سواه فمن عرف الله تعالى عرف أنه يفعل ما يشاء ولا يبالي، ويحكم ما يريد ولا يخاف، قرب الملائكة من غير وسيلة سابقة، وأبعد إبليس من غير جريمة سالفة، بل صفته ما ترجمه قوله تعالى: " هؤلاء في الجنة ولا أبالي وهؤلاء في النار ولا أبالي ". وإن خطر ببالك أنه لا يعاقب إلا على معصية ولا يثيب إلا على طاعة فتأمل أنه لم يمد المطيع بأسباب الطاعة حتى يطع شاء أم أبى ولم يمد العاصي بدواعي المعصية حتى يعصى شاء أم أبى، فإنه مهما خلق الغفلة والشهوة والقدرة على قضاء الشهوة كان الفعل واقعاً بها بالضرورة، فإن كان أبعد لأنه عصاه فلم حمله على المعصية هل ذلك لمعصية سابقة حتى يتسلسل إلى غير نهاية أو يقف لا محالة على أول لا علة له من جهة العبد بل قضي عليه في الأزل، وعن هذا المعنى عبر صلى الله عليه وسلم إذ قال: " احتج آدم وموسى عليهما الصلاة والسلام عند ربهما، فحج آدم موسى عليه السلام، قال موسى أنت آدم الذي خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأسجد لك ملائكته وأسكنك جنته، ثم أهبطت الناس بخطيتك إلى الأرض. فقال آدم: أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالته وبكلامه وأعطاك الألواح فيها تبيان كل شيء وقربك نجياً، فيكم وجدت الله كتب التوراة قبل أن أخلق؟ قال موسى: بأربعين عاماً، قال آدم: فهل وجدت فيها " وعصى آدم ربه فغوى " قال نعم. قال: أفتلومني على أن عملت عملاً كتبه الله علي قبل أن أعمله وقبل أن يخلقني بأربعين سنة، قال صلى الله عليه وسلم: فحج آدم موسى " فمن عرف السبب في هذا الأمر معرفة صادرة عن نور الهداية فهو من خصوص العارفين المطلعين على سر القدر، ومن سمع هذا فأمن به وصدق بمجرد السماع فهو من عموم المؤمنين، ويحصل لكل واحد من الفريقين خوف، فإن كل عبد فهو واقع في قبضة القدرة وقوع الصبي الضعيف في مخالف السبع، والسبع قد يغفل بالاتفاق فيخليه، وقد يهجم عليه فيفتنسه وذلك بحسب ما يتفق، ولذلك الاتفاق أسباب مرتبة بقدر معلوم، ولكن إذا أضيف إلى من لا يعرفه سمي اتفاقاً، وإن أضيف إلى علم الله لم يجز أن يسمى اتفاقاً، والواقع في مخالف السبع لو كملت معرفته لكان لا يخاف السبع؛ لأن السبع مسخر: إن سلط عليه الجوع افترس، وإن سلط عليه الغفلة خلى وترك، وإنما يخاف خالق السبع وخالق صفاته، فلست أقول مثال الخوف من الله تعالى الخوف من السبع، بل إذا كشف الغطاء علم أن الخوف من السبع هو عين الخوف من الله تعالى، لأن المهلك بواسطة السبع هو الله فاعلم أن سباع الأخرى مثل سباع الدنيا، وأن الله تعالى خلق أسباب العذاب وأسباب الثواب وخلق لكل واحد أهلاً يسوقه القدر المتفرع عن القضاء الجزم الأزلي إلى ما خلق له، فخلق الجنة وخلق لها أهلاً سخروا لأسبابها شأؤوا أم أبوا، وخلق النار وخلق لها أهلاً سخروا لأسبابها شأؤوا أم أبوا، فلا يرى أحد نفسه في ملتطم أمواج القدر إلا غلبه الخوف بالضرورة، فهذه مخاوف العارفين بسر القدر، فمن قعد به القصور عن الارتفاع إلى مقام الاستبصار فسيب له أن يعالج نفسه الأخبار والآثار، فيطالع أحوال الخائفين العارفين وأقوالهم، وينسب عقولهم ومناصبهم إلى مناصب الراجين المغرورين، فلا يتمارى في أن الإقتداء بهم أولى لأنهم الأنبياء والأولياء والعلماء. وأما الأمنون فهم الفراعنة والجهال والأغبياء. أما رسولنا صلى الله عليه وسلم فهو سيد الأولين والآخرين وكان أشد الناس خوفأحتي روي أنه كان يصلي على طفل: ففي رواية أنه سمع في دعائه يقول: " اللهم قه عذاب القبر وعذاب النار " وفي رواية ثانية: أنه سمع قائلاً يقول: هنيئاً لك، عصفور من عصفير الجنة، فغضب وقال: " ما يدريك أنه كذلك، والله إنني رسول الله وما أدري ما يصنع بي! إن الله خلق الجنة وخلق لها أهلاً لا يزداد فيهم ولا ينقص منهم ". وروي أنه صلى الله عليه وسلم قال ذلك أيضاً على جنازة عثمان بن مظعون وكان من المهاجرين الأولين لما قالت أم سلمة: هنيئاً لك الجنة، فكانت تقول أم سلمة بعد ذلك: والله لا أزكي أحداً بعد عثمان. وقال محمد بن حولة الحنفي: والله لا أزكي أحداً غير رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أبي الذي ولدني، قال: فثارت الشيعة عليه، فأخذ يذكر من فضائل علي ومناقبه. وروي في حديث آخر عن رجل من أهل الصفة استشهد فقالت أمه هنيئاً لك عصفور من عصفير الجنة هاجرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقتلت في سبيل الله فقال صلى الله عليه وسلم: " وما يدريك لعله كان يتكلم بما لا ينفعه ويمنع ما لا يضره ". وفي حديث آخر أنه دخل صلى الله عليه وسلم على بعض أصحابه وهو عليل فسمع امرأة تقول: هنيئاً لك الجنة، فقال صلى الله عليه وسلم: " من هذه المتألية على الله تعالى؟ فقال المريض: هي أمي يا رسول الله، فقال: " وما يدريك، لعل فلاناً كان يتكلم بما لا يعنيه ويبخل بما لا يغنيه " وكيف لا يخاف المؤمنون كلهم، وهو صلى الله عليه وسلم يقول: " شيبنتي هود وأخواتها " سورة الواقعة وإذا الشمس

كورت وعم يتساءلون فقال العلماء: لعل ذلك لما في سورة هود من الإبعاد كقوله تعالى " ألا بعداً لعاد قوم هود " " ألا بعداً لثمود " " ألا بعداً لمدين كما بعدت ثمود " مع علمه صلى الله عليه وسلم بأنه لو شاء الله ما أشركوا، إذ لو شاء لأتى كل نفس هداها وفي سورة الواقعة " ليس لوقعتها كاذبة، خافضة رافعة " أي جف القلم بما هو كائن وتمت السابقة حتى نزلت الواقعة: إما خافضة قوماً كانوا مرفوعين في الدنيا، وإما رافعة قوماً كانوا مخفوضين في الدنيا. وفي سورة التكويد أهوال يوم القيامة وانكشاف الخاتمة، وهو قوله تعالى: " وإذا الجحيم سعرت وإذا الجنة أزلقت علمت نفس ما أحضرت " وفي عم يتساءلون " يوم ينظر المرء ما قدمت يداه " الآية. وقوله تعالى " لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً " والقرآن من أوله إلى آخره مخاوف لمن قرأه بتدبر، ولو لم يكن فيه إلا قوله تعالى " وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى " لكان كافياً، إذ علق المغفرة على أربعة شروط يعجز العبد عن أحادها، وأشد منه قوله تعالى " فأما من تاب وآمن وعمل صالحاً فعسى أن يكون من المفلحين ". وقوله تعالى " ليسأل الصادقين عن صدقهم " وقوله تعالى " سنفرغ لكم آية الثقلان "، وقوله عز وجل " أفأمنوا مكر الله " الآية. وقوله: " وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذها أليم شديد "، وقوله تعالى " يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً " الأيتين. وقوله تعالى " وإن منكم إلا واردها " الآية. وقوله: " اعملوا ما شئتم " الآية. وقوله: " من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه " الآية. وقوله: " فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره " الأيتين. وقوله تعالى: " وقدمنا إلى ما عملوا من عمل " الآية. وكذلك قوله تعالى " والعصر إن الإنسان لفي خسر " إلى آخر السورة فهذه أربع شروط للخلاص من الخسران، وإنما كان خوف الأنبياء مع ما فاض عليهم من النعم لأنهم لم يأمنوا مكر الله تعالى " فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون " حتى روي أن النبي وجبريل عليهما الصلاة والسلام بكيا خوفاً من الله تعالى، فأوحى الله إليهما لم يتكيا وقد أمنتكما؟ فقالا: ومن يأمن مكرك؟ وكأنهما إذ علما أن الله هو علام الغيوب وأنه لا وقوف لهما على غاية الأمور لم يأمن أن يكون قوله: قد أمنتكما، ابتلاءً وامتحاناً لهما ومكراً بهما، حتى إن سكن خوفهما ظهر أنهما قد أمنا من المكر وما وفيما بقولهما كما أن إبراهيم صلى الله عليه وسلم لما وضع في المنجنيق قال: حسبي الله، وكانت هذه من الدعوات العظام فامتحن وعورض بجبريل في الهواء، حتى قال: ألك حاجة؟ فقال: أما إليك فلا، فكان ذلك وفاءً بحقيقة قوله حسبي الله، فأخبر الله تعالى عنه فقال: " وإبراهيم الذي وفى " أي بموجب قوله: حسبي الله، وبمثل هذا أخبر عن موسى صلى الله عليه وسلم حيث قال: " إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى، قال لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى " ومع هذا لما ألقى السحرة سحرهم أوجس موسى في نفسه خيفة، إذ لم يأمن مكر الله والتبس الأمر عليه حتى جدد عليه الأمن وقيل له: " لا تخف إنك أنت الأعلى " ولما ضعفت شوكة المسلمين يوم بدر قال صلى الله عليه وسلم: " اللهم إن تهلك هذه العصابة لم يبق على وجه الأرض أحد يعبدك " فقال أبو بكر رضي الله تعالى عنه: دع عنك مناشدتك ربك فإنه وافٍ لك بما وعدك، فكان مقام الصديق رضي الله عنه مقام الثقة بوعده الله، وكان مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم مقام الخوف من مكر الله وهو أتم لأنه لا يصدر إلا عن كمال المعرفة بأسرار الله تعالى وخفايا أفعاله ومعاني صفاته التي يعبر عن بعض ما يصدر عنها بالمكر، وما لأحد من البشر الوقوف على كنه صفات الله تعالى، ومن عرف حقيقة المعرفة قصور معرفته عن الإحاطة بكنه الأمور عظم خوفه لا محالة، ولذلك قال المسيح صلى الله عليه وسلم لما قيل له " أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله؟ قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس بحق، إن كنت قلتها فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك "، وقال: " إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم " الآية، فوض الأمر إلى المشيئة وأخرج نفسه بالكليّة من البين، لعلمه بأنه ليس له من الأمر بشيء وأن الأمور مرتبطة بالمشيئة ارتباطاً يخرج عن حد المعقولات والمألوفات فلا يمكن الحكم عليها بقياس ولا حدس ولا حسابان فضلاً عن التحقيق والاستيقان، وهذا هو الذي قطع قلوب العارفين، إذ الطامة الكبرى هي ارتباط أمرك بمشيئة من لا يبالي بك إن أهلك أمثالي ممن لا يحصى ولم يزل في الدنيا يعذبهم بأنواع الآلام والأمراض، ويمرض مع ذلك قلوبهم بالكفر والنفاق، ثم يخذ العقاب عليهم أبد الأباد، ثم يخبر عنه ويقول " ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ولكن حق القول مني لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين "، وقال تعالى " وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم " الآية. فكيف لا يخاف ما حق من القول في الأزل ولا يطعم في تداركه ولو كان الأمر أنفاً لكانت الأطماع تمتد إلى حيلة فيه، ولكن ليس إلا التسليم فيه والاستقرار خفي السابقة من جلي الأسباب الظاهرة على القلب والجوارح؛ فمن يسرت له أسباب الشر وحيل بينه وبين أسباب الخير وأحكمت علاقته من الدنيا فكانه كشف له على التحقيق سر السابقة التي سبقت له بالشقاوة، إذ كل ميسر لما خلق له، وإن كانت الخيرات كلها ميسرة والقلب بالكليّة عن الدنيا منقطعاً وبظاهره وباطنه على الله مقبلاً: كان هذا يقتضي تخفيف الخوف لو كان الدوام على ذلك موثقاً به؛ ولكن خطر الخاتمة وعسر الثبات يزيد نيران الخوف إشعالاً ولا يمكنها من الانطفاء، وكيف يؤمن بتغيير الحال وقلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن وأن القلب أشد تلقباً من القدر في غليانها، وقد قال مقلب القلوب عز وجل " إن عذاب ربهم غير مأمون " فأجهل الناس من آمنه وهو ينادي بالتحذير من الأمن، ولولا أن الله لطف بعباده العارفين إذ روح قلوبهم بروح الرجاء لاحتزقت قلوبهم من

نار الخوف. فأسباب الرجاء رحمة لخواص الله وأسباب الغفلة رحمة على عوام الخلق من وجه؛ إذ لو انكشف الغطاء لزهقت النفوس وتقطعت القلوب من خوف مقلب القلوب. قال بعض العارفين: لو حالت بينك وبين من عرفته بالتوحيد خمسين سنة أسطوانة فمات لم أقطع له بالتوحيد، لأنني لا أدري ما ظهر له من التقلب. وقال بعضهم: لو كانت الشهادة على باب الدار والموت على الإسلام عند باب الحجره لاخترت الموت على الإسلام، لأنني لا أدري ما يعرض لقلبي بين باب الحجره وباب الدار. وكان أبو الدرداء يحلف بالله ما أحد أمن على إيمانه أن يسلبه عند الموت إلا سلبه. وكان سهل يقول: خيعة القلم أعلى من الالتفات إلى ما يظهر في الأبد، وإليه أشار النبي صلى الله عليه وسلم حيث كان على المنبر فقبض كفه اليمنى ثم قال: " هذا كتاب الله كتب فيه أهل الجنة بأسمائهم وأسماء آبائهم لا يزداد فيهم ولا ينقص " ثم قبض كفه اليسرى وقال: " هذا كتاب الله كتب فيه أهل النار بأسمائهم وأسماء آبائهم لا يزداد فيهم ولا ينقص وليعملن أهل السعادة بعمل أهل الشقاوة حتى يقال كأنهم منهم بل هم هم، ثم يستنقذهم الله قبل الموت ولو بفراق ناقة. وليعملن أهل الشقاوة بعمل أهل السعادة حتى يقال كأنهم منهم بل هم هم، ثم يستخرجهم الله قبل الموت ولو بفراق ناقة، السعيد من سعد بقضاء الله، والشقي من شقي بقضاء الله، والأعمال بالخواتيم" وهذا كانقسام الخائفين إلى من يخاف معصيته وجنايته، وإلى من يخاف الله تعالى نفسه لصفته وجلاله وأوصافه التي تقتضي الهيبة لا محالة، فهذا أعلى رتبة، ولذلك يبقى خوفه وإن كان في طاعة الصديقين، وأما الآخر فهو في عرصه الغرور والأمن، إن واطب على الطاعات فالخوف من المعصية خوف الصالحين، والخوف من الله خوف الموحدين والصديقين، وهو ثمرة المعرفة بالله تعالى، وكل من عرفه وعرف صفاته علم من صفاته ما هو جدير بأن يخاف من غير جنائية، بل العاصي لو عرف الله حق المعرفة لخاف الله ولم يخف معصيته، ولولا أنه مخوف في نفسه لما سخره للمعصية ويسر له سبيلها ومهد له أسبابها، فإن تيسير أسباب المعصية إبعاد ولم يسبق منه قبل المعصية معصية استحق بها أن يسخر للمعصية وتجرى عليه أسبابها ولا سبق قبل الطاعة وسيلة توصل بها من يسرت له الطاعات ومهد له سبيل القربات، فالعاصي قد قضى عليه بالمعصية شاء أم أبى، وكذا المطيع فالذي يرفع محمداً صلى الله عليه وسلم إلى أعلى عليين من غير وسيلة سبقت منه قبل وجوده ويضع أبا جهل في أسفل سافلين من غير جنائية سبقت منه قبل وجوده جدير بأن يخاف منه لصفة جلالة، فإن من أطاع الله أطاع بأن سلط عليه إرادة الطاعة وآتاه القدرة وبعد خلق الإرادة الجازمة والقدرة التامة يصير الفعل ضرورياً، والذي عصى عصى لأنه سلط عليه إرادة قوية جازمة وآتاه الأسباب والقدرة، فكان الفعل بعد الإرادة والقدرة ضرورياً، فليت شعري ما الذي أوجب إكرام هذا وتخصيصه بتسليط إرادة الطاعات عليه، وما الذي أوجب إهانة الآخر وإبعاده بتسليط دواعي المعصية عليه، وكيف يحال ذلك على العبد؟ وإذا كانت الحوالة ترجع إلى القضاء الأزلي من غير جنائية ولا وسيلة فالخوف ممن يقضي بما يشاء ويحكم بما يريد حزم عند كل عاقل، ووراء هذا المعنى سر القدر لا يجوز إفساؤه ولا يمكن أن تفهم الخوف منه في صفاته جل جلاله إلا بمثال لولا إذن الشرع لم يستجري على ذكره ذو بصيرة، فقد جاء في الخير: إن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام: يا داود خفي كما تخاف السبع الضاري. فهذا المثل يفهمك حاصل المعنى وإن كان لا يقف بك على سببه فإن الوقوف على سببه ووقوف على سر القدر، ولا يكشف ذلك إلا لأهله. والحاصل أن السبع يخاف لا لجنائية سبقت إليه منك بل لصفته وبطشه وسطوته وكبره وهيئته، ولأنه يفعل ما يفعل ولا يبالي، فإن قتلك لم يرق قلبه ولا يتألم بقتلك وإن خلاك لم يخالك شفقة عليك وإبقاء على روحك بل أنت عنده أخس من أن يلتفت إليك حياً كنت أو ميتاً بل إهلاك ألف مثلك وإهلاك نملة عنده على وتيرة واحدة، إذ لا يقدر ذلك في عالم سبعيته وما هو موصوف به من قدرته وسطوته، والله المثل الأعلى، ولكن من عرفه عرف بالمشاهدة الباطنة التي هي أقوى وأوثق وأجلى من المشاهدة الظاهرة أنه صادق في قوله: " هؤلاء إلى الجنة ولا أبالي هؤلاء إلى النار ولا أبالي " ويكفيك من موجبات الهيبة بالاستعناء وعدم المبالاة.

الطبقة الثانية من الخائفين: أن يتمثل في أنفسهم ما هو المكروه، وذلك مثل سكرات الموت وشدته، أو سؤل منكر ونكير، أو عذاب القبر، أو هول المطلع، أو هيبه الموقف بين يدي الله تعالى والحياء من كشف الستر والسؤال عن النكير والقطمير، أو الخوف من الصراط وحدته وكيفية العبور عليه، أو الخوف من النار وأغلالها وأهوالها، أو الخوف من الحرمان عن الجنة دار النعيم والملك المقيم وعن نقصان الدرجات، أو الخوف من الحجاب عن الله تعالى، وكل هذه الأسباب مكروهة في نفسها لا محالة مخوفة وتختلف أحوال الخائفين فيها. وأعلها رتبة هو خوف الفراق والحجاب عن الله تعالى وهو خوف العارفين وما قبل ذلك هو خوف العاملين والصالحين والزاهدين وكافة العالمين، ومن لم تكمل معرفته ولم تتفتح بصيرته لم يشعر بلذة الوصال ولا بألم البعد والفراق، وإذا ذكر له أن العارف لا يخاف النار وإنما يخاف الحجاب وجد ذلك في باطنه منكرأ وتعجب منه في نفسه، وربما أنكر لذة النظر إلى وجه الله الكريم لولا منع الشرع إياه من إنكاره، فيكون اعترافه به باللسان عن ضرورة التقليد، وإلا فباطنه لا يصدق به لأنه لا يعرف إلا لذة البطن والفرج والعين بالنظر إلى الألوان والوجوه الحسان، وبالجملة كل لذة تشاركه فيها البهائم؛ فأما لذة العارفين فلا يدركها غيرهم، وتفصيل ذلك وشرحه حرام مع من ليس أهلاً له، ومن كان أهلاً

استبصر بنفسه واستغنى عن أن يشرحه له غيره، فإلى هذه الأقسام يرجع خوف الخائفين، نسأل الله تعالى حسن التوفيق بكرمه.

بيان فضيلة الخوف والترغيب فيه

اعلم أن فضل الخوف تارة يعرف بالتأمل والاعتبار، وتارة بالآيات والأخبار. أما الاعتبار فسيبيله أن فضيلة الشيء بقدر غناؤه في الإفضاء إلى سعادة لقاء الله تعالى في الآخرة، إذ لا مقصود سوى السعادة، ولا سعادة للعبد إلا في لقاء مولاه والقرب منه؛ فكل ما أعان عليه فله فضيلة، وفضيلته بقدر غايته، وقد ظهر أنه لا وصول إلى سعادة لقاء الله في الآخرة إلا بتحصيل محبته والأنس به في الدنيا، ولا تحصل المحبة إلا بالمعرفة، ولا تحصل المعرفة إلا بدوام الفكر، ولا يحصل الأنس إلا بالمحبة ودوام الذكر، ولا تتيسر المواظبة على الذكر والفكر إلا بانقطاع حب الدنيا من القلب، ولا ينقطع ذلك إلا بترك لذات الدنيا وشهواتها ولا يمكن ترك المشتبهات إلا بقمع الشهوات، ولا تنقمع الشهوة بشيء كما تنقمع بنار الخوف؛ فالخوف هو النار المحرقة للشهوات؛ فإن فضيلته بقدر ما يحرق من الشهوات وبقدر ما يكف عن المعاصي ويحث على الطاعات، ويختلف ذلك باختلاف درجات الخوف كما سبق، وكيف لا يكون الخوف ذا فضيلة وبه تحصل العفة والورع والتقوى والمجاهدة وهي الأعمال الفاضلة المحمودة التي تقرب إلى الله زلفى.

وأما بطريق الاقتباس من الآيات والأخبار فما ورد في فضيلة الخوف خارج عن الحصر، وناهيك دلالة على فضيلته جمع الله تعالى للخائفين الهدى والرحمة والعلم والرضوان وهي مجامع مقامات أهل الجنان، وقال الله تعالى: " وهدى ورحمة للذين يرهبون " وقال تعالى: "إنما يخشى الله من عباده العلماء " وصفهم بالعلم لخشيتهم. وقال عز وجل: " رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه " وكل ما دل على فضيلة العلم دل على فضيلة الخوف، لأن الخوف ثمرة العلم، ولذلك جاء في خبر موسى عليه أفضل الصلاة والسلام: وأما الخائفون فإن لهم الرفيق الأعلى لا يشاركون فيه، فانظر كيف أفردهم بمرافقة الرفيق الأعلى، وذلك لأنهم العلماء والعلماء لهم رتبة مرافقة الأنبياء لأنهم ورثة الأنبياء ومرافقة الرفيق الأعلى للأنبياء ومن يلحق بهم، ولذلك لما خير رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرض موته بين البقاء في الدنيا وبين القدوم على الله تعالى كان يقول: أسألك الرفيق الأعلى " فإذن إن نظر إلى مثمره فهو العلم، وإن نظر إلى ثمرته فالورع والتقوى، ولا يخفى ما ورد في فضائلهما، حتى إن العاقب صارت موسومة بالتقوى مخصوصة بها كما صار الحمد مخصوصاً بالله تعالى والصلاة برسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى يقال: الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، والصلاة على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وآله أجمعين، وقد خصص الله تعالى التقوى بالإضافة إلى نفسه فقال تعالى: " لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم " وإنما التقوى عبارة عن كف بمقتضى الخوف - كما سبق - ولذلك قال تعالى " إن أكرمكم عن الله أتقاكم " ولذلك أوصى الله تعالى الأولين والآخرين بالتقوى فقال تعالى: " ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله " وقال عز وجل: " وخافون إن كنتم مؤمنين " فأمر بالخوف وأوجبه وشرطه في الإيمان، فلذلك لا يتصور أن ينفك مؤمن عن خوف وإن ضعف، ويكون ضعف خوفه بحسب ضعف معرفته وإيمانه، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم في فضيلة التقوى " وإذا جمع الله الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم فإذا هم بصوت يسمع أذانهم كما يسمع أذانهم فيقول: يا أيها الناس إني قد أنصت لكم منذ خلقتكم إلى يومكم هذا فانصتوا إلي اليوم، إنما أعمالكم ترد عليكم، أيها الناس: إني قد جعلت نسباً وجعلت نسباً، فوضعتم نسبي ورفعتم نسبكم، قلت " إن أكرمكم عند الله أتقاكم " وأبيتم إلا أن تقولوا فلان بن فلان، وفلان أغنى من فلان، فاليوم أضع نسبكم وأرفع نسبي، أين المتقون؟ فيرفع للقوم لواء فيتبع القوم لواءهم إلى منازلهم فيدخلون الجنة بغير حساب".

وقال صلى الله عليه وسلم: "رأس الحكمة مخافة الله".

وقال عليه الصلاة والسلام لابن مسعود: "إن أردت أن تلقاني فأكثر من الخوف بعدي".

وقال الفضيل: من خاف الله دله الخوف على كل خير.

وقال الشبلي رحمه الله: ما خفت الله يوماً إلا رأيت له باباً من الحكمة والعبرة ما رأيت قط. وقال يحيى بن معاذ: ما من مؤمن يعمل السيئة إلا ويلحقها حسنتان: خوف العقاب ورجاء العفو كنعلم بين أسدين. وفي خبر موسى عليه

الصلاة والسلام: وأما الورعون فإنه لا يبقى أحد إلا ناقشته الحساب وقتشت عما في يديه إلا الورعين فإنني أستحي منهم وأجلهم أن أوقفهم للحساب.

والورع والتقوى أسام اشتقتم معان شرطها الخوف، فإن خلت عن الخوف لم تسم بهذه الأسماء، وكذلك ما ورد في فضائل الذكر لا يخفى، وقد جعله الله تعالى مخصوصاً بالخائفين فقال " سيذكر من يخشى ".

وقال تعالى " ولمن خاف مقام ربه جنتان ".
وقال صلى الله عليه وسلم " قال الله عز وجل: وعزتي لا أجمع على عبدي خوفين ولا أجمع له أمنين فإن أمني في الدنيا أخفته يوم القيامة، وإن خافني في الدنيا أمنتته يوم القيامة".

وقال صلى الله عليه وسلم: " من خاف الله تعالى خافه كل شيء، ومن خاف غير الله خوفه الله من كل شيء".

وقال صلى الله عليه وسلم: " أتمكم عقلاً أشدكم خوفاً لله تعالى، وأحسنكم فيما أمر الله تعالى به ونهى عنه نظراً".

وقال يحيى بن معاذ رحمة الله عليه: مسكين ابن آدم لو خاف النار كما يخاف الفقر دخل الجنة.

وقال ذو النون رحمه الله تعالى: من خاف الله تعالى ذاب قلبه واشتد حبه وصح له ليه.

وقال ذو النون أيضاً: ينبغي أن يكون الخوف أبلغ من الرجاء فإذا غلب الرجاء تشوش القلب.

وكان أبو الحسين الضرير يقول: علامة السعادة خوف الشقاوة، لأن الخوف زمام بين الله تعالى وبين عبده، فإذا انقطع زمامه هلك مع الهالكين.

وقيل ليحيى بن معاذ من آمن الخلق غداً؟ فقال: أشدهم خوفاً اليوم.

وقال سهل رحمه الله: لا تجد الخوف حتى تأكل الحلال.

وقيل للحسين: يا أبا سعيد، كيف نصنع؟ نجالس أقواماً يخوفونا حتى تكاد قلوبنا تطير! فقال: والله إنك إن تخالط أقواماً يخوفونك حتى يدركك أمن؛ خير من أن تصحب أقواماً يؤمنوك حتى يدركك الخوف.

وقال أبو سليمان الداراني رحمه الله: ما فارق الخوف قلباً إلا خرب.

وقالت عائشة رضي الله عنها: قلت يا رسول الله " الذين يؤتون ما أتوا وقلوبهم وجلة " هو الرجل يسرق ويزني؟ قال: " لا، بل الرجل يصوم ويتصدق ويخاف أن لا يقبل منه"، والتشديدات الواردة في الأمن من مكر الله وعذابه لا تنحصر، وكل ذلك ثناء على الخوف، لأن مذمة الشيء ثناء على ضده الذي ينفيه، وضد الخوف الأمن، كما أن ضد الرجاء اليأس، وكما دلت مذمة القنوط على فضيلة الرجاء فكذلك تدل مذمة الأمن على فضيلة الخوف المضاد له بل نقول: كل ما ورد في فضل الرجاء فهو دليل على فضل الخوف لأنهما متلازمان، فإن كل من رجا محبوباً فلا بد وأن يخاف فوته، فإن كان لا يخاف فوته فهو إذاً لا يحبه فلا يكون بانتظاره راجياً، فالخوف والرجاء متلازمان يستحيل انفكاك أحدهما عن الآخر، نعم يجوز أن يغلب أحدهما على الآخر وهما مجتمعان، ويجوز أن يشغل القلب بأحدهما ولا يلتفت إلى الآخر في الحال لغفلة عنه، وهذا لأن من شرط الرجاء والخوف تعلقهما بما هو مشكوك فيه، إذ المعلوم لا يرجى ولا يخاف، فإذا المحبوب الذي يجوز وجوده يجوز عدمه لا محالة؛ فتقدير وجوده يروح القلب وهو الرجاء؛ وتقدير عدمه يوجع القلب وهو الخوف، والتقديران يتقابلان لا محالة إذا كان ذلك الأمر المنتظر مشكوكاً فيه، نعم أحد طرفي الشك قد يترجح على الآخر بحضور بعض الأسباب ويسمى ذلك ظناً، فيكون ذلك سبب غلبة أحدهما على الآخر، فإذا غلب على الظن وجود المحبوب قوي الرجاء وخفي الخوف بالإضافة إليه، وكذا بالعكس، وعلى كل حال فهما متلازمان، ولذلك قال تعالى " ويدعوننا رغياً ورهياً " وقال عز وجل " يدعون ربهم خوفاً وطمعاً " ولذلك عبر العرب عن الخوف بالرجاء، فقال تعالى " ما لكم لا ترجون لله وقاراً " أي لا تخافون،

وكثيراً ما ورد في القرآن الرجاء بمعنى الخوف وذلك لتلازمهما، إذ عادة العرب التعبير عن الشيء بما يلزمه، بل أقول: كل ما ورد في فضل البكاء من خشية الله فهو إظهار لفضيلة الخشية، فإن البكاء ثمرة الخشية فقد قال تعالى: " فليضحكوا قليلاً وليبكيوا كثيراً " .

وقال تعالى " يبكون ويزيدهم خشوعاً " .

وقال عز وجل " أفمن هذا الحديث تعجبون وتضحكون ولا تبكون وأنتم سامدون " .

وقال صلى الله عليه وسلم: " ما من عبد مؤمن تخرج من عينيه دمعة وإن كانت مثل رأس الذباب من خشية الله تعالى ثم تصيب شيئاً من حر وجهه إلا حرمه الله على النار " . وقال صلى الله عليه وسلم: " إذا اقشعر قلب المؤمن من خشية الله تحانت عنه خطاياه كما يتحانت من الشجرة ورقها " .

وقال صلى الله عليه وسلم: " لا يلج النار أحد بكى من خشية الله تعالى حتى يعود اللبن في الضرع " .

وقال عقبة بن عامر: ما النجاة يا رسول الله؟ قال: " أمسك عليك لسانك وليسعك بيتك وابك على خطيئتك " .

وقالت عائشة رضي الله عنها: قلت يا رسول الله أيدخل أحد من أمتك الجنة بغير حساب؟ قال: " نعم من ذكر ذنوبه فبكى " .

وقال صلى الله عليه وسلم: " ما من قطرة أحب إلى الله تعالى من قطرة دمع من خشية الله تعالى أو قطرة دم أهرقت في سبيل الله سبحانه وتعالى " .

وقال صلى الله عليه وسلم: " اللهم ارزقني عينين هطالتين تشفيان القلب بذرف الدمع مع خشيتك قبل أن تصير الدموع دماً والأضراس جمرأ " .
وقال صلى الله عليه وسلم: " سبعة يظلمهم الله يوم لا ظل إلا ظله " وذكر منهم " رجلاً ذكر الله خالياً ففاضت عيناه " .

وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: من استطاع أن يبكي فليبك ومن لم يستطع فليتبك .

وكان محمد بن المنكدر رحمه الله إذا بكى مسح وجهه ولحيته بدموعه ويقول: بلغني أن النار لا تأكل موضعاً مسته الدموع .

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: ابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا، فوالذي نفسي بيده لو يعلم العلم أحدكم لصرخ حتى ينقطع صوته، وصلى حتى ينكسر صلته .

وقال أبو سليمان الداراني رحمه الله: ما تغرغت عين بمائها إلا لم يرهق وجه صاحبها قطر ولا ذلة يوم القيامة، فإن سألت دموعه أطفأ الله بأول قطرة منها بحاراً من النيران، ولو أن رجلاً بكى في أمة ما عذبت تلك الأمة .

وقال أبو سليمان البكاء من الخوف، والرجاء والطرب من الشوق .

وقال كعب الأحبار رضي الله عنه: والذي نفسي بيده؛ لأن أبكي من خشية الله حتى تسيل دموعي على وجنتي أحب إلي من أن أتصدق بجبل من ذهب .

وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: لأن أدمع دمعة من خشية الله أحب إلي من أن أتصدق بألف دينار .
وروي عن حنظلة قال: كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فوعظنا موعظة رقت لها القلوب وذرفت منها العيون وعرفنا أنفسنا فرجعنا إلى أهلي فدننت مني المرأة وجرى بيننا من حديث الدنيا فنسيت ما كنا عليه عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخذنا في الدنيا، ثم تذكرت ما كنا فيه فقلت في نفسي: قد ناققت حيث تحول عني ما

كنت فيه من الخوف والرقبة، فخرجت وجعلت أنادي: نافق حنظلة، فاستقبلني أبو بكر الصديق رضي الله عنه فقال: كلا لم ينافق حنظلة، فدخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أقول: نافق حنظلة؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " كلا لم ينافق حنظلة " فقلت يا رسول الله كنا عندك فوعظتنا موعظة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون وعرفنا أنفسنا، فرجعت إلى أهلي فأخذنا في حديث الدنيا ونسيت ما كنا عندك عليه. فقال صلى الله عليه وسلم: " يا حنظلة لو أنكم كنتم أبداً على تلك الحالة لصافحتكم الملائكة في الطريق وعلى فراشكم، ولكن يا حنظلة ساعة وساعة".

فإذن كل ما ورد في فضل الرجاء واليبكاء وفضل التقوى والورع وفضل العلم ومذمة الأمن فهو دلالة على فضل الخوف؛ لأن جملة ذلك متعلقة به إما تعلق السبب أو تعلق المسبب.

بيان أن الأفضل هو غلبة الخوف أو غلبة الرجاء أو اعتدالهما

اعلم أن الأخبار في فضل الخوف والرجاء قد كثرت، وربما ينظر الناظر إليها فيعتريه شك في أن الأفضل أيهما، وقول القائل: الخوف أفضل أم الرجاء؟ سؤال فاسد يضاهي قول القائل: الخبز أفضل أم الماء؟ وجوابه أن يقال: الخبز أفضل للجائع والماء أفضل للعطشان، فإن اجتمعا نظر إلى الأغلب: فإن كان الجوع أغلب فالخبز أفضل، وإن كان العطش أغلب فالماء أفضل، وإن استويا فهما متساويان، وهذا لأن كل ما يراد لمقصود فضله يظهر بالإضافة إلى مقصوده لا إلى نفسه، والخوف والرجاء دواءان يداوى بهما القلوب، فضلهما بحسب الداء الموجود، فإن كان الغالب على القلب داء الأمن من مكر الله تعالى والاعتزاز به فالخوف أفضل، وإن كان الأغلب هو اليأس والقنوط من رحمة الله فالرجاء أفضل، وكذلك إن كان الغالب على العبد المعصية فالخوف أفضل، ويجوز أن يقال مطلقاً: الخوف أفضل على التأويل الذي يقال فيه الخبز أفضل من السكجنين، إذ يعالج بالخبز مرض الجوع، وبالسكجنين مرض الصفراء، ومرض الجوع أغلب وأكثر فالحاجة إلى الخبز أكثر فهو أفضل، فبهذا الاعتبار غلبة الخوف أفضل؛ لأن المعاصي والاعتزاز على الخلق أغلب، وإن نظر إلى مطلع الخوف والرجاء فالرجاء أفضل لأنه مستقى من بحر الرحمة، ومستقى الخوف من بحر الغضب، ومن لاحظ من صفات الله تعالى ما يقتضي اللطف والرحمة كانت المحبة عليه أغلب، وليس وراء المحبة مقام. وأما الخوف فمستنده الالتفات إلى الصفات التي تقتضي العف فلا تمازجه المحبة ممازجتها للرجاء.

وعلى الجملة فما يراد لغيره ينبغي أن يستعمل فيه لفظ الأصلح لا لفظ الأفضل فنقول: أكثر الخلق الخوف لهم أصلح من الرجاء، وذلك لأجل غلبة المعاصي. فأما التقى الذي ترك ظاهر الإثم وباطنه وخفيه وجليه فالأصلح أن يعتدل خوفه ورجاؤه، ولذلك قيل: لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه لاعتدلا.

وروي أن علياً كرم الله وجهه قال لبعض ولده: يا بني خف الله خوفاً ترى أنك لو أتيت به بحسنات أهل الأرض لم يتقبلها منك، وارج الله رجاءً ترى أنك لو أتيت به بسينات أهل الأرض غفرها لك.

ولذلك قال عمر رضي الله عنه: لو نودي ليدخل النار كل الناس إلا رجلاً واحداً لرجوت أن أكون أنا ذلك الرجل، ولو نودي ليدخل الجنة كل الناس إلا رجلاً واحداً لخشيت أن أكون أنا ذلك الرجل.

وهذا عبارة عن غاية الخوف والرجاء واعتدالهما مع الغلبة والاستيلاء ولكن على سبيل التقاوم والتساوي؛ فمثل عمر رضي الله عنه ينبغي أن يستوي خوفه ورجاؤه، فأما العاصي إذا ظن أنه الرجل الذي استثنى من الذين أمروا بدخول النار كان ذلك دليلاً على اعتزازه. فإن قلت: مثل عمر رضي الله عنه لا ينبغي أن يتساوى خوفه ورجاؤه، بل ينبغي أن يغلب رجاءه كما سبق في أول كتاب الرجاء، وأن قوته ينبغي أن تكون بحسب قوة أسبابه كما مثل بالزرع والبذر، ومعلوم أن من بث البذر الصحيح في أرض نقية وواظب على تعهدها وجاء بشروط الزراعة جميعها غلب على قلبه رجاء الإدراك ولم يكن خوفه مساوياً لرجائه. فهكذا ينبغي أن تكون أحوال المتقين! فاعلم أن من يأخذ المعارف من الألفاظ والأمثلة يكثر زسه، وذلك وإن أوردناه مثلاً فليس يضاهي ما نحن فيه من كل وجه، لأن سبب غلبة الرجاء العلم بالحاصل بالتجربة، إذ علم بالتجربة صحة الأرض ونقاؤها، وصحة البذر وصحة الهواء وقلة الصواعق المهلكة في تلك البقاع وغيرها، وإنما مثال مسألتنا بذر لم يجرب جنسه وقد بث في أرض غريبة لم يعهدها الزارع ولم يختبرها، وهي بلاد ليس يدري أتكثر الصواعق فيها أم لا، فمثل هذا الزارع وإن أدى كنه مجهوده، وجاء بكل مقدوره فلا يغلب رجاءه على خوفه، والبذر في مسألتنا هو الإيمان - وشروط صحته دقيقة

والأرض قلب - وخفايا خبثه وصفائه من الشرك الخفي والنفاق والرياء وخفايا الأخلاق فيه غامضة، والآفات هي الشهوات وزخارف الدنيا والتفات القلب إليها في مستقبل الزمان وإن سلم في الحال، وذلك مما لا يتحقق ولا يعرف بالتجربة، إذ قد يعرض من الأسباب ما لا يطاق مخالفته ولم يجرب مثله، والصواعق هي أهوال سكرات الموت واضطراب الاعتقاد عنده، وذلك مما لم يجرب مثله، ثم الحصاد والإدراك عند المنصرف من القيامة إلى الجنة وذلك لم يجرب، فمن عرف حقائق هذه الأمور فإن كان ضعيف القلب جباناً في نفسه غلب خوفه على رجائه لا محالة كما سيحكي في أحوال الخائفين من الصحابة والتابعين، وإن كان قوي القلب ثابت الجأش تام المعرفة استوى خوفه ورجاؤه، فأما أن يغلب رجاءه فلا، وقد كان عمر رضي الله عنه يبالغ في تفتيش قلبه حتى كان يسأل حذيفة رضي الله عنه هل يعرف به من آثار النفاق شيئاً، إذ كان قد خصه رسول الله صلى الله عليه وسلم بعلم المنافقين، فمن ذا الذي يقدر على تطهير قلبه من خفايا النفاق والشرك الخفي، وإن اعتقد نقاء قلبه عن ذلك فمن أين يأمن مكر الله تعالى بتليبس حاله عليه وإخفاء عيبه عنه؟ وإن وثق به فمن أين يثق ببقائه على ذلك إلى تمام حسن الخاتمة؟ وقد قال صلى الله عليه وسلم إن الرجل ليعمل عمل أهل الجنة خمسين سنة حتى لا يبقى بينه وبين الجنة إلا شبر". وفي رواية " إلا قدر فواق ناقة فيسبق عليه الكتاب فيختم له بعمل أهل النار " وقدر فواق الناقة لا يحتمل عملاً بالجوارح إنما هو بمقدار خاطر يختلج في القلب عند الموت فيقتضي خاتمة السوء، فكيف يؤمن ذلك؟ فإذا أقصى غايات المؤمن أن يعتدل خوفه ورجاؤه، وغلبة الرجاء في غالب الناس تكون مستندة للاغترار وقلة المعرفة، ولذلك جمع الله تعالى بينهما في وصف من أتى عليهم فقال تعالى: "يدعون ربهم خوفاً وطمعاً". وقال عز وجل: "ويدعوننا رغباً ورهباً".

وأين مثل عمر رضي الله عنه؟ فالخلق الموجودة في هذا الزمان كلهم الأصلح لهم غلبة الخوف، بشرط أن لا يخرجهم إلى اليأس وترك العمل وقطع الطمع من المغفرة فيكون ذلك سبباً للتكاسل عن العمل وداعياً إلى الانهماك في المعاصي فإن ذلك قنوط وليس بخوف، إنما الخوف هو الذي يحث على العمل ويكدر جميع الشهوات ويزعج القلب عن الركون إلى الدنيا ويدعوه إلى التجافي عن دار الغرور فهو الخوف المحمود، دون حديث النفس الذي لا يؤثر في الكف والحث ودون اليأس الموجب للقنوط.

وقد قال يحيى بن معاذ: من عبد الله تعالى بمحض الخوف غرق في بحار الأفكار، ومن عبده بمحض الرجاء تاه في مفازة الاغترار، ومن عبده بالخوف والرجاء في محجة الادكار.

وقال مكحول الدمشقي: من عبد الله بالخوف فهو حروري، ومن عبده بالرجاء فهو مرجئ، ومن عبده بالمحبة فهو زنديق، ومن عبد بالخوف والرجاء والمحبة فهو موحد. فإذا لا بد من الجمع بين هذه الأمور، وغلبة الخوف هو الأصلح ولكن قبل الإشراف على الموت، أما عند الموت فالأصلح غلبة الرجاء وحسن الظن، لأن الخوف جار مجرى السوط الباعث على العمل وقد انقضى وقت العمل، فالمشرف على الموت لا يقدر على العمل ثم لا يطيق أسباب الخوف، فإن ذلك يقطع نياط قلبه ويعين على تعجيل موته، وأما روح الرجاء فإنه يقوي قلبه ويحبب إليه ربه الذي إليه رجاءه، ولا ينبغي أن يفارق أحد الدنيا إلا محباً لله تعالى للقاء الله تعالى، فإن من أحب لقاء الله تعالى أحب الله لقاءه، والرجاء تقارنه المحبة فمن ارتجى كرمه فهو محبوب، والمقصود من العلوم والأعمال كلها معرفة الله تعالى حتى تثمر المعرفة المحبة، فإن المصير إليه والقدم بالموت عليه، ومن قدم على محبوبه عظم سروره بقدر محبته، ومن فارق محبوبه اشتدت محنته وعذابه، فمهما كان القلب الغالب عليه عند الموت حب الأهل والولد والمال والمسكن والعقار والرفقاء والأصحاب: فهذا رجل محابه كلها في الدنيا، فالدنيا جنته، إذ الجنة عبارة عن البقعة الجامعة لجميع المحاب، فموته خروج من الجنة وحيلولة بينه وبين ما يشتهي، ولا يخفى حال من يحال بينه وبين ما يشتهي، فإذا لم يكن له محبوب سوى الله تعالى وسوى ذكره ومعرفته والفكر فيه والدنيا وعلائقها شاغلة له عن المحبوب فالدنيا إذن سجنه، لأن السجن عبارة عن البقعة المانعة للمحبوس عن الاسترواح إلى محابه، فموته قدوم على محبوبه وخلاص من السجن ولا يخفى حال من أفلت من السجن وخلي بينه وبين محبوبه بلا مانع ولا مكد، فهذا أول ما يلقاه كل من فارق الدنيا عقيب موته من الثواب والعقاب فضلاً عما أعده الله لعباده الصالحين مما لم تره عين ولا تسمعه أذن ولا خطر على قلب بشر، وفضلاً عما أعده الله تعالى للذين استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة ورضوا بها واطمأنوا إليها من الأتكال والسلاسل والأغلال وضروب الخزي والنكال، فنسأل الله تعالى أن يتوفانا مسلمين ويلحقنا بالصالحين، ولا مطعم في إجابة هذا الدعاء إلا باكتساب حب الله تعالى، ولا سبيل إليه إلا بإخراج حب غيره من القلب وقطع العلائق عن كل ما سوى الله تعالى من جاه ومال ووطن، فالأولى أن تدعو بما دعا به نبينا صلى الله عليه وسلم إذ قال: " اللهم ارزقني حبك وحب من أحبك وحب ما يقربني إلى حبك واجعل حبك أحب

إلي من الماء البارد" والغرض أن غلبة الرجاء عند الموت أصلح لأنه أجلب للمحبة، وغلبة الخوف قبل الموت أصلح لأنه أحرق لنار الشهوات وأقمع لمحبة الدنيا عن القلب، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: " لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بربه".

وقال تعالى: " أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء ".

ولما حضرت سليمان التيمي الوفاة قال لابنه: يا بني حدثني بالرخص واذكر لي الرجاء حتى ألقى الله على حسن الظن به.

وكذلك لما حضرت الثوري الوفاة واشتد جزعه جمع العلماء حوله يرجونه.

وقال أحمد بن حنبل رضي الله تعالى عنه لابنه عند الموت: اذكر لي الأخبار التي فيها الرجاء وحسن الظن، والمقصود من ذلك كله أن يحبب الله تعالى إلى نفسه، ولذلك أوحى الله تعالى إلى داود عليه الصلاة والسلام: أن حببني إلى عبادي، فقال: بماذا؟ قال: بأن تذكر لهم آلائي ونعمائي. فإذن غاية السعادة أن يموت محباً لله تعالى، وإنما تحصل المحبة بالمعرفة بإخراج حب الدنيا من القلب حتى تصير الدنيا كلها كالسجن المانع من المحبوب، ولذلك رأى بعض الصالحين أبا سليمان الداراني في المنام وهو يطير، فسأله فقال: الآن أفلت، فلما أصبح سأل عن حاله فقيل له: إنه مات البارحة.

بيان الدواء الذي يستجلب حال الخوف

اعلم أن ما ذكرناه في حال الصبر وشرحناه في كتاب الصبر والشكر هو كاف في هذا الغرض، لأن الصبر لا يمكن إلا بعد حصول الخوف والرجاء، لأن أول مقامات الدين اليقين الذي هو عبارة عن قوة الإيمان بالله تعالى وباليوم الآخر والجنة والنار، وهذا اليقين بالضرورة يهيج الخوف من النار والرجاء للجنة والرجاء والخوف يقويان على الصبر، فإن الجنة قد حفت بالمكاره فلا يصبر على تحملها إلا بقوة الرجاء؛ والنار قد حفت بالشهوات فلا يصبر على قمعها إلا بقوة الخوف، ولذلك قال علي كرم الله وجهه: من اشتاق إلى الجنة سلا عن الشهوات، ومن أشفق من النار رجع عن المحرمات. ثم يؤدي مقام الصبر المستفاد من الخوف والرجاء إلى مقام المجاهدة والتجرد لذكر الله تعالى والفكر على الدوام، ويؤدي دوام الذكر إلى الأُنس ودوام الفكر إلى كمال المعرفة، ويؤدي كمال المعرفة والأُنس إلى المحبة ويتبعها مقام الرضا والتوكل وسائر المقامات، فهذا هو الترتيب في سلوك منازل الدين، وليس بعد أصل اليقين مقام سوى الخوف والرجاء، ولا بعدهما مقام سوى الصبر، وبه المجاهدة والتجرد لله ظاهراً وباطناً، ولا مقام بعد المجاهدة لمن فتح له الطريق إلا الهداية والمعرفة، ولا مقام بعد المعرفة إلا المحبة والأُنس، ومن ضرورة المحبة الرضا بفعل المحبوب والثقة بعنايته وهو التوكل، فإذن فيما ذكرناه في علاج الصبر كفاية، ولكننا نفرد الخوف بكلام جملي فنقول: الخوف يحصل بطريقتين مختلفتين أحدهما أعلى من الآخر، ومثاله: أن الصبي إذا كان في بيت فدخل عليه سبع أو حية ربما كان لا يخاف، وربما مد اليد إلى الحية ليأخذها ويلعب بها، ولكن إذا كان معه أبوه وهو عاقل خاف من الحية وهرب منها، فإذا نظر الصبي إلى أبيه وهو ترتعد فرائصه ويحتال في الهرب منها قام معه وغلب عليه الخوف وواقفه في الهرب؛ فخوف الأب عن بصيرة ومعرفة بصفة الحية وسمها وخاصيتها وسطوة السبع وبطشه وقلة مبالاته، وأما خوف الابن فايمنه بمجرد التقليد لأنه يحسن الظن بأبيه ويعلم أنه لا يخاف إلا من سبب مخوف في نفسه، فيعلم أن السبع مخوف ولا يعرف وجهه، وإذا عرفت هذا المثال فاعلم أن الخوف من الله تعالى على مقامين: أحدهما الخوف من عذابه، والثاني الخوف منه؛ فأما الخوف منه فهو خوف من العلماء وأرباب القلوب العارفين من صفاته ما يقتضي الهيبة والخوف والحدز المطلعين على سر قوله تعالى: " ويحذركم الله نفسه " وقوله عز وجل " اتقوا الله حق تقاته " وأما الأول فهو خوف عموم الخلق، وهو حاصل بأصل الإيمان بالجنة والنار، وكونهما جزاءين على الطاعة والمعصية وضعفه بسبب الغفلة وسبب ضعف الإيمان، وإنما تزول الغفلة بالتذكير والوعظ وملازمة الفكر في أهوال يوم القيامة وأصناف العذاب في الآخرة، وتزول أيضاً بالنظر إلى الخائفين ومجالستهم ومشاهدة أحوالهم؛ فإن فانت المشاهدة فالسمع لا يخلو عن تأثير، وأما الثاني وهو الأعلى فأن يكون الله هو المخوف، أعني أن يخاف العبد الحجاب عنه ويرجو القرب منه.

قال نو النون رحمه الله تعالى: خوف النار عند خوف الفراق كقطرة قطرت في بحر لجي.

وهذه خشية العلماء حيث قال تعالى " إنما يخشى الله من عباده العلماء " ولعموم المؤمنين أيضاً حظ من هذه الخشية، ولكن هو بمجرد التقليد أيضاً هو خوف الصبي من الحية تقليداً لأبيه، وذلك لا يستند إلى بصيرة فلا جرم يضعف ويزول على قرب، حتى إن الصبي ربما يرى المعزم يقدم على أخذ الحياة فينظر إليه ويغتر به فيتجرأ على أخذها تقليداً له كما احترز من أخذها تقليداً لأبيه، والعقائد التقليدية ضعيفة في الغالب إلا إذا قويت بمشاهدة أسبابها المؤكدة لها على الدوام وبالمواظبة على مقتضاها في تكثير الطاعات، واجتناب المعاصي مدة طويلة على الاستمرار؛ فإذن من ارتقى إلى ذروة المعرفة وعرف الله تعالى خافه بالضرورة فلا يحتاج إلى علاج لجلب الخوف، كما أن من عرف السبع ورأى نفسه واقعاً في مخالفه لا يحتاج إلى علاج لجلب الخوف إلى قلبه بل يخافه بالضرورة شاء أم أبى، ولذلك أوحى الله تعالى إلى داود عليه الصلاة والسلام: خفني كما تخاف السبع الضاري. ولا حيلة في جلب الخوف من السبع الضاري إلا معرفة السبع ومعرفة الوقوع في مخالفه فلا يحتاج إلى حيلة سواء فمن عرف الله تعالى عرف أنه يفعل ما يشاء ولا يبالي، ويحكم ما يريد ولا يخاف، قرب الملائكة من غير وسيلة سابقة، وأبعد إبليس من غير جريمة سالفة، بل صفته ما ترجمه قوله تعالى: " هؤلاء في الجنة ولا أبالي وهؤلاء في النار ولا أبالي ".

وإن خطر ببالك أنه لا يعاقب إلا على معصية ولا يثيب إلا على طاعة فتأمل أنه لم يمد المطيع بأسباب الطاعة حتى يطيع شاء أم أبى ولم يمد العاصي بدواعي المعصية حتى يعصى شاء أم أبى، فإنه مهما خلق الغفلة والشهوة والقدرة على قضاء الشهوة كان الفعل واقعاً بها بالضرورة، فإن كان أبعد عنه عصاه فلم حمله على المعصية هل ذلك لمعصية سابقة حتى يتسلسل إلى غير نهاية أو يقف لا محالة على أول لا علة له من جهة العبد بل قضى عليه في الأزل، وعن هذا المعنى عبر صلى الله عليه وسلم إذ قال: " احتج آدم وموسى عليهما الصلاة والسلام عند ربهما، فحج آدم موسى عليه السلام، قال موسى أنت آدم الذي خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأسجد لك ملائكته وأسكنك جنته، ثم أهبطت الناس بخطيئتك إلى الأرض. فقال آدم: أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالته وبكلامه وأعطاك الألواح فيها تبيان كل شيء وقربك نجياً، فيكم وجدت الله كتب التوراة قبل أن أخلق؟ قال موسى: بأربعين عاماً، قال آدم: فهل وجدت فيها " وعصى آدم ربه فغوى " قال نعم. قال: أفتلومني على أن عملت عملاً كتبه الله علي قبل أن أعمله وقبل أن يخلقني بأربعين سنة، قال صلى الله عليه وسلم: فحج آدم موسى " فمن عرف السبب في هذا الأمر معرفة صادرة عن نور الهداية فهو من خصوص العارفين المطلعين على سر القدر، ومن سمع هذا فأمن به وصدق بمجرد السماع فهو من عموم المؤمنين، ويحصل لكل واحد من الفريقين خوف، فإن كل عبد فهو واقع في قبضة القدرة وقوع الصبي الضعيف في مخالف السبع، والسبع قد يغفل بالاتفاق فيخليه، وقد يهجم عليه فيفتنسه وذلك بحسب ما يتفق، ولذلك الاتفاق أسباب مرتبة بقدر معلوم، ولكن إذا أضيف إلى من لا يعرفه سمي اتفاقاً، وإن أضيف إلى علم الله لم يجز أن يسمى اتفاقاً، والواقع في مخالف السبع لو كملت معرفته لكان لا يخاف السبع؛ لأن السبع مسخر: إن سلط عليه الجوع افترس، وإن سلط عليه الغفلة خلى وترك، فإنما يخاف خالق السبع وخالق صفاته، فلست أقول مثال الخوف من الله تعالى الخوف من السبع، بل إذا كشف الغطاء علم أن الخوف من السبع هو عين الخوف من الله تعالى، لأن المهلك بواسطة السبع هو الله فاعلم أن سباع الآخرة مثل سباع الدنيا، وأن الله تعالى خلق أسباب العذاب وأسباب الثواب وخلق لكل واحد أهلاً يسوقه القدر المتفرع عن القضاء الجزم الأزلي إلى ما خلق له، فخلق الجنة وخلق لها أهلاً سخروا لأسبابها شأؤوا أم أبوا، وخلق النار وخلق لها أهلاً سخروا لأسبابها شأؤوا أم أبوا، فلا يرى أحد نفسه في ملتزم أمواج القدر إلا غلبه الخوف بالضرورة، فهذه مخاوف العارفين بسر القدر، فمن قعد به القصور عن الارتفاع إلى مقام الاستبصار فسبيله أن يعالج نفسه الأخبار والآثار، فيطالع أحوال الخائفين العارفين وأقوالهم، وينسب عقولهم ومناصبهم إلى مناصب الراجين المغرورين، فلا يتمارى في أن الإقتداء بهم أولى لأنهم الأنبياء والأولياء والعلماء. وأما الأمنون فهم الفراعنة والجهال والأغبياء. أما رسولنا صلى الله عليه وسلم فهو سيد الأولين والآخرين وكان أشد الناس خوفاً حتى روي أنه كان يصلي على طفل: ففي رواية أنه سمع في دعائه يقول: " اللهم قه عذاب القبر وعذاب النار " وفي رواية ثانية: أنه سمع قائلاً يقول: هنيئاً لك، عصفور من عصافير الجنة، فغضب وقال: " ما يدريك أنه كذلك، والله إنني رسول الله وما أدري ما يصنع بي! إن الله خلق الجنة وخلق لها أهلاً لا يزداد فيهم ولا ينقص منهم " .

وروي أنه صلى الله عليه وسلم قال ذلك أيضاً على جنازة عثمان بن مظعون وكان من المهاجرين الأولين لما قالت أم سلمة: هنيئاً لك الجنة، فكانت تقول أم سلمة بعد ذلك: والله لا أزكي أحداً بعد عثمان. وقال محمد بن خولة الحنفي: والله لا أزكي أحداً غير رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أبي الذي ولدني، قال: فثارت الشيعة عليه، فأخذ يذكر من فضائل علي ومناقبه. وروي في حديث آخر عن رجل من أهل الصفة استشهد فقالت أمه هنيئاً لك عصفور من عصافير الجنة هاجرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقتلت في سبيل الله فقال

صلى الله عليه وسلم: " وما يدريك لعله كان يتكلم بما لا ينفعه ويمنع ما لا يضره". وفي حديث آخر أنه دخل صلى الله عليه وسلم على بعض أصحابه وهو عليل فسمع امرأة تقول: هنيئاً لك الجنة، فقال صلى الله عليه وسلم: " من هذه المتألية على الله تعالى؟ فقال المريض: هي أمي يا رسول الله، فقال: " وما يدريك، لعل فلاناً كان يتكلم بما لا يعنيه ويبخل بما لا يعنيه" وكيف لا يخاف المؤمنون كلهم، وهو صلى الله عليه وسلم يقول: " شيبنتي هود وأخواتها" سورة الواقعة وإذا الشمس كورت وعم يتساءلون فقال العلماء: لعل ذلك لما في سورة هود من الإبعاد كقوله تعالى " ألا بعداً لعاد قوم هود " " ألا بعداً لثمود " " ألا بعداً لمدين كما بعدت ثمود " مع علمه صلى الله عليه وسلم بأنه لو شاء الله ما أشركوا، إذ لو شاء لأتى كل نفس هداها وفي سورة الواقعة " ليس لوقعتها كاذبة، خافضة رافعة " أي جف القلم بما هو كائن وتمت السابقة حتى نزلت الواقعة: إما خافضة قوماً كانوا مرفوعين في الدنيا، وإما رافعة قوماً كانوا مخفوضين في الدنيا. وفي سورة التكوير أهوال يوم القيامة وانكشاف الخاتمة، وهو قوله تعالى: " وإذا الجحيم سعرت وإذا الجنة أزلفت علمت نفس ما أحضرت " وفي عم يتساءلون " يوم ينظر المرء ما قدمت يداه " الآية. وقوله تعالى " لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً " والقرآن من أوله إلى آخره مخاوف لمن قرأه بتدبير، ولو لم يكن فيه إلا قوله تعالى " وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى " لكان كافياً، إذ علق المغفرة على أربعة شروط يعجز العبد عن أحادها، وأشد منه قوله تعالى " فأما من تاب وآمن وعمل صالحاً فعسى أن يكون من المفلحين ". وقوله تعالى " ليسأل الصادقين عن صدقهم " وقوله تعالى " سنفرغ لكم آية الثقلان "، وقوله عز وجل " أفأمنوا مكر الله " الآية. وقوله: " وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذها أليم شديد "، وقوله تعالى " يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً " الآيتين. وقوله تعالى " وإن منكم إلا واردها " الآية. وقوله: " اعملوا ما شئتم " الآية. وقوله: " من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه " الآية. وقوله: " فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره " الآيتين. وقوله تعالى: " وقدمنا إلى ما عملوا من عمل " الآية. وكذلك قوله تعالى " والعصر إن الإنسان لفي خسر " إلى آخر السورة فهذه أربع شروط للخلاص من الخسران، وإنما كان خوف الأنبياء مع ما فاض عليهم من النعم لأنهم لم يأمنوا مكر الله تعالى " فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون " حتى روي أن النبي وجبريل عليهما الصلاة والسلام بكيا خوفاً من الله تعالى، فأوحى الله إليهما لم تبيكان وقد أمنتكما؟ فقالا: ومن يأمن مكرك؟ وكأنهما إذ علما أن الله هو علام الغيوب وأنه لا وقوف لهما على غاية الأمور لم يأمن أن يكون قوله: قد أمنتكما، ابتلاءً وامتحاناً لهما ومكراً بهما، حتى إن سكن خوفهما ظهر أنهما قد أمنا من المكر وما وفيا بقولهما كما أن إبراهيم صلى الله عليه وسلم لما وضع في المنجنيق قال: حسبي الله، وكانت هذه من الدعوات العظام فامتحن وعورض بجبريل في الهواء، حتى قال: ألك حاجة؟ فقال: أما إليك فلا، فكان ذلك وفاءً بحقيقة قوله حسبي الله، فأخبر الله تعالى عنه فقال: " وإبراهيم الذي وفى " أي بموجب قوله: حسبي الله، وبمثل هذا أخبر عن موسى صلى الله عليه وسلم حيث قال: " إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى، قال لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى " ومع هذا لما ألقى السحرة سحرهم أوجس موسى في نفسه خيفة، إذ لم يأمن مكر الله والتيس الأمر عليه حتى جدد عليه الأمن وقيل له: " لا تخف إنك أنت الأعلى " ولما ضعفت شوكة المسلمين يوم بدر قال صلى الله عليه وسلم: " اللهم إن تهلك هذه العصابة لم يبق على وجه الأرض أحد يعبدك " فقال أبو بكر رضي الله تعالى عنه: دع عنك مناشدتك ربك فإنه وافٍ لك بما وعدك، فكان مقام الصديق رضي الله عنه مقام الثقة بوعد الله، وكان مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم مقام الخوف من مكر الله وهو أتم لأنه لا يصدر إلا عن كمال المعرفة بأسرار الله تعالى وخفايا أفعاله ومعاني صفاته التي يعبر عن بعض ما يصدر عنها بالمكر، وما لأحد من البشر الوقوف على كنه صفات الله تعالى، ومن عرف حقيقة المعرفة قصور معرفته عن الإحاطة بكنه الأمور عظم خوفه لا محالة، ولذلك قال المسيح صلى الله عليه وسلم لما قيل له " أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله؟ قال سبحانه ما يكون لي أن أقول ما ليس بحق، إن كنت قلت فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك "، وقال: " إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم " الآية، فوض الأمر إلى المشيئة وأخرج نفسه بالكلمة من البين، لعلمه بأنه ليس له من الأمر بشيء وأن الأمور مرتبطة بالمشيئة ارتباطاً يخرج عن حد المعقولات والمألوفات فلا يمكن الحكم عليها بقياس ولا حدس ولا حسابان فضلاً عن التحقيق والاستيقان، وهذا هو الذي قطع قلوب العارفين، إذ الطامة الكبرى هي ارتباط أمرك بمشيئة من لا يبالي بك إن أهلك أمثالي ممن لا يحصى ولم يزل في الدنيا يعذبهم بأنواع الآلام والأمراض، ويمرض مع ذلك قلوبهم بالكفر والنفاق، ثم يخلد العقاب عليهم أبد الأباد، ثم يخبر عنه ويقول " ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ولكن حق القول مني لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين "، وقال تعالى " وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم " الآية. فكيف لا يخاف ما حق من القول في الأزل ولا يطمع في تداركه ولو كان الأمر أنفاً لكانت الأطماع تمتد إلى حيلة فيه، ولكن ليس إلا التسليم فيه والاستقرار خفي السابقة من جلي الأسباب الظاهرة على القلب والجوارح؛ فمن يسرت له أسباب الشر وحيل بينه وبين أسباب الخير وأحكمت علاقته من الدنيا فكأنه كشف له على التحقيق سر السابقة التي سبقت له بالشفاوة، إذ كل ميسر لما خلق له، وإن كانت الخيرات كلها ميسرة والقلب بالكلمة عن الدنيا منقطعاً وبظاهره وباطنه على الله مقبلاً:

كان هذا يقتضي تخفيف الخوف لو كان الدوام على ذلك موثقاً به؛ ولكن خطر الخاتمة وعسر الثبات يزيد نيران الخوف إشعاعاً ولا يمكنها من الانطفاء، وكيف يؤمن بتغير الحال وقلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن وأن القلب أشد تقلباً من القدر في غليانها، وقد قال مقلب القلوب عز وجل " إن عذاب ربهم غير مأمون " فأجهل الناس من أمنه وهو ينادي بالتحذير من الأمن، ولولا أن الله لطف بعباده العارفين إذ روح قلوبهم بروح الرجاء لا احترقت قلوبهم من نار الخوف. فأسباب الرجاء رحمة لخواص الله وأسباب الغفلة رحمة على عوام الخلق من وجه؛ إذ لو انكشف الغطاء لزهقت النفوس وتقطعت القلوب من خوف مقلب القلوب. قال بعض العارفين: لو حالت بينك وبين من عرفته بالتوحيد خمسين سنة أسطوانة فمات لم أقطع له بالتوحيد، لأنني لا أدري ما ظهر له من التقلب.

وقال بعضهم: لو كانت الشهادة على باب الدار والموت على الإسلام عند باب الحجرة لاخترت الموت على الإسلام، لأنني لا أدري ما يعرض لقلبي بين باب الحجرة وباب الدار.

وكان أبو الدرداء يحلف بالله ما أحد أمن على إيمانه أن يسلبه عند الموت إلا سلبه.

وكان سهل يقول: خوف الصديقين من سوء الخاتمة عند كل خطرة وعند كل حركة، وهم الذين وصفهم الله تعالى إذ قال: " وقلوبهم وجلة".

ولما احتضر سفيان جعل يبكي ويجزع، فقيل له: يا أبا عبد الله عليك بالرجاء فإن عفو الله أعظم من ذنوبك. فقال: أو على ذنوبي أبكي لو علمت أنني أموت على التوحيد لم أبال بأن ألقى الله بأمثال الجبال من الخطايا. وحكي عن بعض الخائفين أنه أوصى بعض إخوانه فقال: إذا حضرته الوفاة فاقعد عند رأسي، فإن رأيتني مت على التوحيد فخذ جميع ما أملكه فاشتر به لوزاً وسكراً وانثره على صبيان أهل البلد، وقل هذا عرس المنفلت، وإن مت على غير التوحيد فأعلم الناس بذلك حتى لا يغتروا بشهود جنازتي ليحضر جنازتي من أحب على بصيرة لئلا يلحقني الرياء بعد الوفاة. قال: وبم اعلم ذلك؟ فذكر له علامة، فرأى علامة التوحيد عند موته فاشترى السكر واللوز وفرقه.

وكان سهل يقول: المرید يخاف أن يبتلى بالمعاصي، والعارف يخاف أن يبتلى بالكفر.

وكان أبو زيد يقول: إذا توجهت إلى المسجد فكأن في وسطي زناراً أخاف أن يذهب بي إلى البيعة وبيت النار حتى أدخل المسجد فينقطع عني الزنار، فهذا لي في كل يوم خمس مرات.

وروي عن المسيح عليه الصلاة والسلام أنه قال: يا معشر الحواريين، أنتم تخافون المعاصي، ونحن معاشر الأنبياء نخاف الكفر.

وروي في أخبار الأنبياء أن نبياً شكى إلى الله تعالى الجوع والقمل والعري سنين وكان لباسه الصوف، فأوحى الله تعالى إليه: عبيدي، أما رضيت أن عصمت قلبك أن تكفر بي حتى تسألني الدنيا؟ فأخذ التراب فوضعه على رأسه وقال: بلى قد رضيت يا رب فاعصمني من الكفر.

فإذا كان خوف العارفين مع رسوخ أقدامهم وقوة إيمانهم من سوء الخاتمة فكيف لا يخافه الضعفاء. ولسوء الخاتمة أسباب تتقدم على الموت مثل البدعة والنفاق والكبر وجملة من الصفات المذمومة، ولذلك اشتد خوف الصحابة من النفاق حتى قال الحسن: لو أعلم أنني بريء من النفاق كان أحب إلي مما طلعت عليه الشمس وما عنوا به النفاق الذي هو ضد أصل بل المراد به ما يجتمع مع أصل الإيمان فيكون مسلماً منافقاً، وله علامات كثيرة: قال صلى الله عليه وسلم: " أربع من كن فيه فهو منافق خالص وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم، وإن كانت فيه خصلة منهن ففيه شعبة من النفاق حتى يدعها: من إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اتّمن خان، وإذا خاصم فجر" وفي لفظ آخر " وإذا عاهد غدر "

وقد فسر الصحابة والتابعون النفاق بتفاسير لا يخلو عن شيء منه إلا صديق، إذ قال الحسن: إن من النفاق اختلاف السر والعلانية واختلاف اللسان والقلب واختلاف المدخل والمخرج، ومن الذي يخلو عن هذه المعاني بل صارت هذه الأمور مألوفاً بين الناس معتادة ونسي كونها منكر بالكلية، بل جرى ذلك على قرب عهد بزمان النبوة، فكيف

الظن بزماننا! حتى قال حذيفة رضي الله تعالى عنه: إن كان الرجل ليتكلم بالكلمة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فيصير بها منافقاً إني لأسمعها من أحدكم في اليوم عشر مرات.

وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون: إنكم لتعملون أعمالاً هي أدق في أعينكم من الشعر كنا نعدها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكبائر.

وقال بعضهم: علامة النفاق أن تكره من الناس ما تأتي مثله، وأن تحب على شيء من الجور، وأن تبغض على شيء من الحق.

وقيل من النفاق: أنه إذا مدح بشيء ليس فيه أعجبه.

وقال رجل لابن عمر رحمه الله: إنا ندخل على هؤلاء الأمراء فنصدقهم فيما يقولون، فإذا خرجنا تكلمنا فيهم، فقال: كنا نعد هذا نفاقاً على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وروي أنه سمع رجلاً يذم الحجاج ويقع فيه، فقال: أرأيت لو كان الحجاج أكنت تتكلم بما تكلمت به؟ قال: لا، قال: كنا نعد هذا نفاقاً على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم. وأشد من ذلك ما روي أن نفرأ قعدوا على باب حذيفة ينتظرونه، فكانوا يتكلمون في شيء من شأنه، فلما خرج عليهم سكتوا حياءً منه، فقال: تكلموا فيما كنتم تقولون فسكتوا؛ فقال: كنا نعد هذا نفاقاً على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وهذا حذيفة كان قد خص بعلم المنافقين وأسباب النفاق، وكان يقول: إنه يأتي على القلب ساعة يمتلئ بالإيمان حتى لا يكون للنفاق فيه مغرز إبره، ويأتي عليه ساعة يمتلئ بالنفاق حتى لا يكون للإيمان فيه مغرز إبره، فقد عرفت بهذا أن خوف العارفين من سوء الخاتمة، وأن سببه أمور تتقدمه: منها البدع ومنها المعاصي ومنها النفاق، ومتى يخلو العبد عن شيء من جملة ذلك! وإن ظن أنه خلا عنه فهو النفاق، إذ قيل: من أمن النفاق فهو منافق. وقال بعضهم لبعض العارفين: إني أخاف على نفسي النفاق، فقال: لو كنت منافقاً لما خفت النفاق. فلا يزال العارف بين الالتفات إلى السابقة والخاتمة خائفاً منهما، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: "العبد المؤمن بين مخالفتين: بين أجل قد مضى لا يدري ما الله صانع فيه، وبين أجل قد بقي لا يدري ما الله قاض فيه، فوالذي نفسي بيده ما بعد الموت من مستعجب، ولا بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار"، والله المستعان.

بيان معنى سوء الخاتمة

فإن قلت: إن أكثر هؤلاء يرجع خوفهم إلى سوء الخاتمة، فما معنى سوء الخاتمة؟ فاعلم أن سوء الخاتمة على رتبتين: إحداها أعظم من الأخرى، فأما الرتبة العظيمة الهائلة: فإن يغلب على القلب عند سكرات الموت وظهور أهواله: إما الشك وإما الجحود، فتقبض الروح على حال غلبة الجحود أو الشك، فيكون ما غلب على القلب من عقدة الجحود حجاباً بينه وبين الله تعالى أبداً، وذلك يقتضي البعد الدائم والعذاب المخلد.

والثانية: وهي دونها أن يغلب على قلبه عند الموت حب أمر من أمور الدنيا وشهوة من شهواتها، فيتمثل ذلك في قلبه ويستغرقه حتى لا يبقى في تلك الحالة متسع لغيره فيتفق قبض روحه في تلك الحال فيكون استغراق قلبه به منكساً رأسه إلى الدنيا وصارفاً وجهه إليها. ومهما انصرف الوجه عن الله تعالى حصل الحجاب. ومهما حصل الحجاب نزل العذاب إذ نار الله الموقدة لا تأخذ إلا المحجوبين عنه؛ فأما المؤمن السليم قلبه من حب الدنيا المصروف همه إلى الله تعالى فتقول له النار: جز يا مؤمن فإن نورك أطفأ لهبي، فمهما اتفق قبض الروح في حالة غلبة حب الدنيا، فالأمر مخطر، لأن المرء يموت على ما عاش عليه، ولا يمكن اكتساب صفة أخرى للقلب بعد الموت تضاد الصفة الغالبة عليه، إذ لا تصرف في القلوب إلا بأعمال الجوارح وقد بطلت الجوارح بالموت فبطلت الأعمال؛ فلا مطمع في عمل ولا مطمع في رجوع إلى الدنيا ليتذكر، وعند ذلك تعظم الحسرة، إلا أن أصل الإيمان وحب الله تعالى إذا كان قد رسخ في القلب مدة طويلة وتأكد ذلك بالأعمال الصالحة فإنه يحو عن القلب هذه الحالة التي عرضت له عند الموت، فإن كان إيمانه في القوة إلى حد متقال أخرجه من النار في زمان أقرب، وإن كان أقل من ذلك طال مكثه في النار، ولو لم يكن إلا مثقال حبة فلا بد وأن يخرج من النار ولو بعد آلاف سنين. فإن قلت: فما ذكرته يقتضي أن تسرع إليه عقيب موته، فما باله يؤخر إلى يوم القيامة ويمهل طول هذه المدة؟ فاعلم أن كل من أنكر عذاب القبر فهو

مبتدع محبوب عن نور الله تعالى وعن نور القرآن ونور الإيمان، بل الصحيح عند ذوي الأبصار ما صحت به الأخبار وهو: أن القبر إما حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة وأنه قد يفتح إلى قبر المعذب سبعون باباً من الجحيم، كما وردت به الأخبار، فلا تفارقه روحه إلا وقد نزل به البلاء إن كان قد شقي بسوء الخاتمة. وإنما تختلف أصناف العذاب باختلاف الأوقات، فيكون سؤال منكر ونكير عند الوضع في القبر والتعذيب بعده، ثم المناقشة في الحساب والافتضاح على مآل من الأشهاد في القيامة، ثم بعد ذلك خطر الصراط هو الزبانية. . . إلى آخر ما وردت به الأخبار، فلا يزال الشقي متردداً في جميع أحواله بين أصناف العذاب وهو في جملة الأحوال معذب إلا أن يتغمده الله برحمته، ولا تظن أن محل الإيمان لا يأكله التراب، بل التراب يأكل جميع الجوارح ويبدها إلى أن يبلغ الكتاب أجله فتجتمع الأجزاء المتفرقة وتعاد إليها الروح التي هي محل الإيمان، وقد كانت من وقت الموت إلى الإعادة إما في حواصل طيور خضر معلقة تحت العرش إن كانت سعيدة، وإما على حالة تضاد هذه الحال إن كانت والعياذ بالله شقية.

فإن قلت: فما السبب الذي يفضي إلى سوء الخاتمة؟ فاعلم أن أسباب هذه الأمور لا يمكن إحصاؤها على التفصيل، ولكن يمكن الإشارة إلى مجامعها: أما الختم على الشك والجحود فينحصر سببه في شيئين: أحدهما يتصور مع تمام الورع والزهّد وتمام الصلاح في الأعمال: كالمبتدع الزاهد فإن عاقبته خطيرة جداً، وإن كانت أعماله سالحة وألست أعني مذهباً فأقول إنه بدعة؛ فإن بيان ذلك يطول القول فيه، بل أعني بالبدعة: أن يعتقد الرجل في ذات الله وصفاته وأفعاله خلاف الحق فيعتقده على خلاف ما هو عليه، إما برأيه ومعقوله له ونظره الذي به يجادل الخصم وعليه يعول وبه يغتر، وإما أخذاً بالتقليد ممن هذا حاله؛ فإذا قرب الموت وظهرت له ناصية ملك الموت واضطرب القلب بما فيه ربما ينكشف له في حال سكرات الموت بطلان ما اعتقده جهلاً، إذ حال الموت حال كشف الغطاء ومبادئ سكراته منه، فقد ينكشف به بعض الأمور؛ فمهما بطل عنده ما كان اعتقده وقد كان قاطعاً به متيقناً له نفسه لم يظن بنفسه أنه أخطأ في هذا الاعتقاد خاصة لالتجانه فيه إلى رأيه الفاسد وعقله الناقص، بل ظن أن كل ما اعتقده لا أصل له، إذ لم يكن عنده فرق في إيمانه بالله ورسوله وسائر اعتقاداته الصحيحة وبين اعتقاده الفاسد، فيكون انكشاف بعض اعتقاداته عن الجهل سبباً لبطلان بقية اعتقاداته أو لشكه فيها، فإن اتفق زهوق روحه في هذه الخطرة قبل أن يثبت ويعود إلى أصل الإيمان فقد ختم له بالسوء وخرجت روحه على الشرك والعياذ بالله منه، فهؤلاء هم المرادون بقوله تعالى " وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحسبون "، وبقوله عز وجل " قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً، الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً " وكما أنه ينكشف في النوم ما سيكون في المستقبل وذلك بسبب خفة أشغال الدنيا عن القلب فكذلك ينكشف في سكرات الموت بعض الأمور، إذ شواغل الدنيا وشهوات البدن هي المانعة للقلب من أن ينظر إلى الملكوت، فيطالع ما في اللوح المحفوظ لتتنكشف له الأمور على ما هي عليه، فيكون مثل هذه الحال سبباً للكشف، ويكون الكشف سبب الشك في بقية الاعتقادات، وكل من اعتقد في الله تعالى وفي صفاته وأفعاله شيئاً على خلاف ما هو به إما تقليداً وإما نظراً بالرأي والمعقول، فهو في هذا الخطر والزهّد والصلاح لا يكفي لدفع هذا الخطر، بل لا ينجي منه إلا الاعتقاد الحق، والبله بمعزل عن هذا الخطر، أعني الذين آمنوا بالله ورسوله واليوم الآخر إيماناً مجملاً راسخاً كالأعراب والسوادية وسائر العوام الذين لم يخوضوا في البحث والنظر ولم يشرعوا في الكلام استقلالاً ولأصغوا إلى أصناف المتكلمين في تقليد أقاويلهم المختلفة، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: " أكثر أهل الجنة البله " ولذلك منع السلف من البحث والنظر والخوض في الكلام والتفتيش عن هذه الأمور، وأمروا الخلق أن يقتصروا على أن يؤمنوا بما أنزل الله عز وجل جميعاً وبكل ما جاء من الظواهر مع اعتقاده نفي التشبيه، ومنعواهم عن الخوض في التأويل لأن الخطر في البحث عن الصفات عظيم وعقباته كئودة ومسالكه وعرة، والعقول عن درك جلال الله تعالى قاصرة، وهداية الله تعالى بنور اليقين عن القلوب بما جبلت عليه من حب الدنيا محجوبة، وما ذكره الباحثون ببضاعة عقولهم مضطرب ومتعارض، والقلوب لما ألقى إليها في مبدأ النشأة آفة وبه متعلقة، والتعصبات النائرة بين الخلق مسامير مؤكدة للعقائد الموروثة أو المأخوذة بحسن الظن من المعلمين في أول الأمر، ثم الطباع بحب الدنيا مشغوفة وعليها مقبلة، وشهوات الدنيا بمخنقتها آخذة وعن تمام الفكر صارفة، فإذا فتح باب الكلام في الله وفي صفاته بالرأي والمعقول مع تفاوت الناس في قرائحهم واختلافهم في طبائعهم وحرص كل جاهل منهم على أن يدعي الكمال أو الإحاطة بكنه الحق انطلقت أسنتهم بما يقع لكل واحد منهم وتعلق ذلك بقلوب المصغين إليهم، وتأكد ذلك بطول الألف فيهم، فانسد بالكلية طريق الخلاص عليهم، فكانت سلامة الخلق في أن يشتغلوا بالأعمال الصالحة ولا يتعرضوا لما هو خارج عن حد طاقتهم، ولكن الآن قد استرخى العنان وفشا الهذيان ونزل كل جاهل على ما وافق طبعه بظن وحسبان، وهو يعتقد أن ذلك علم واستيقان وأنه صفو الإيمان، ويظن أن ما وقع به من حدس وتخمين علم اليقين و عين اليقين "ولتعلمن نبأه بعد حين " وينبغي أن ينشد في هؤلاء عند كشف الغطاء:

ولم تخف سوء ما يأتي به القدر
وعند صفو الليالي يحدث الكدر

أحسنت ظنك بالأيام إذ حسنت
وسالمتك الليالي فاغررت بها

واعلم يقيناً أن كل من فارق الإيمان الساذج بالله وكتبه وخاض في البحث، فقد تعرض لهذا الخطر ومثاله مثال من انكسرت سفينته وهو في ملتطم الأمواج، يرميه موج إلى موج، فربما يتفق أن يلقيه إلى الساحل وذلك بعيد، والهلاك عليه أغلب، وكل نازل على عقيدة تلقفها من الباحثين ببضاعة عقولهم إما مع الأدلة التي حرروها في تعصباتهم أو دون الأدلة، فإن كان شاكاً فيه فهو فاسد الدين وإن كان واثقاً فهو آمن من مكر الله مغتر بعقله الناقص، وكل خائض في البحث فلا ينفك عن هاتين الحالتين، إلا إذا جاوز حدود المعقول إلى نور المكاشفة الذي هو مشرق في عالم الولاية والنبوة وذلك هو الكبريت الأحمر، وإني يتيسر، وإنما يسلم عن هذا الخطر البله من العوام أو الذين شغلهم خوف النار بطاعة الله فلم يخوضوا في هذا الفضول فهذا أحد الأسباب المخطرة في سوء الخاتمة.

وأما السبب الثاني: فهو ضعف الإيمان في الأصل، ثم استيلاء حب الدنيا على القلب، ومهما ضعف الإيمان ضعف حب الله تعالى وقوي حب الدنيا، فيصير بحيث لا يقي في القلب موضع لحب الله تعالى إلا من حيث حديث النفس، ولا يظهر له أثر في مخالفة النفس والعدول عن طريق الشيطان، فيورث ذلك الانهماك في إبتاع الشهوات حتى يظلم القلب ويقسو ويسود وتتراكم ظلمة النفوس على القلب، فلا يزال يطفئ ما فيه من نور الإيمان على ضعفه حتى يصير طبعاً وريناً، فإذا جاءت سكرات الموت ازداد ذلك الحب أعني حب الله ضعفاً لما يبدو من استشعار فراق الدنيا وهي المحبوب الغالب على القلب، فيتألم القلب باستشعار فراق الدنيا، ويرى ذلك من الله فيختلج ضميره بإنكار ما قدر عليه من الموت وكراهة ذلك. من حيث إنه من الله، فيخشى أن يثور في باطنه بغض الله تعالى بدل الحب، كما أن الذي يحب ولده حباً ضعيفاً إذا أخذ ولده أمواله التي هي أحب إليه من ولده وأحرقها انقلب ذلك الحب الضعيف بغضاً، فإن اتفق زهوق روجه في تلك اللحظة التي خطرت فيها هذه الخطرة فقد ختم له بالسوء وهلك هلاكاً مؤبداً، والسبب الذي يفضي إلى مثل هذه الخاتمة هو غلبة حب الدنيا والركون إليها والفرح بأسبابها مع ضعف الإيمان الموجب لضعف حب الله تعالى، فمن وجد في قلبه حب الله أغلب من حب الدنيا وإن كان يحب الدنيا أيضاً فهو أبعد عن هذا الخطر، وحب الدنيا رأس كل خطيئة، وهو الداء العضال، وقد عم أصناف الخلق وذلك كله لقلّة المعرفة بالله تعالى، إذ لا يحبه إلا من عرفه؟ ولهذا قال تعالى: " قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد سبيله فترهبوا حتى يأتي الله بأمره " فإذا كل من فارقت روحه في حالة خطرة الإنكار على الله تعالى بباله وظهر بغض فعل الله بقلبه في تربيته بينه وبين أهله وماله وسائر محابه؛ فيكون موته قدوماً على ما أبغضه ورفاقاً لما أحبه فيقدم على الله قدوم العبد المبغض الأبق إذا قدم به على مولاه قهراً، فلا يخفى ما يستحقه من الخزي والنكال، وأما الذي يتوفى على الحب فإنه يقدم على الله تعالى قدوم العبد المحسن المشتاق إلى مولاه الذي تحمل مشاق الأعمال ووعثاء الأسفار طمعاً في لقائه، فلا يخفى ما يلقاه من الفرح والسرور بمجرد القدوم فضلاً عما يستحقه من لطائف الإكرام وبدائع الإنعام.

وأما الخاتمة الثانية التي هي دون الأولى وليست مقتضية للخلود في النار، فلها أيضاً سببان: أحدهما كثرة المعاصي وإن قوي الإيمان، والآخر ضعف الإيمان وإن قلت المعاصي، وذلك لأن مقارفة المعاصي سببها غلبة الشهوات ورسوخها في القلب بكثرة الإلّف والعادة، وجميع ما ألفه الإنسان في عمره يعود ذكره إلى قلبه عند موته، فإن كان ميله الأكثر إلى الطاعات كان أكثر ما يحضره ذكر طاعة الله، وإن كان ميله الأكثر إلى المعاصي غلب ذكرها على قلبه عن الموت؟ فربما تقبض روحه عند غلبة شهوة من شهوات الدنيا ومعصية من المعاصي، فيتقيد بها قلبه ويصير محجوباً عن الله تعالى، فالذي لا يقارف الذنب إلا الفينة بعد الفينة فهو أبعد عن هذا الخطر، والذي لم يقارف ذنباً أصلاً فهو بعيد جداً عن هذا الخطر، والذي غلبت عليه المعاصي وكانت أكثر من طاعاته وقلبه بها أفرح منه بالطاعات فهذا الخطر عظيم في حقه جداً، ونعرف هذا بمثال: وهو أنه لا يخفى عليك أن الإنسان يرى في منامه جملة من الأحوال التي عهدها طول عمره، حتى إنه لا يرى إلا ما يماثل مشاهدته في اليقظة، وحتى إن المراهق الذي يحتلم لا يرى صورة الوقاع إذا لم يكن قد وقع في اليقظة، ولو بقي كذلك مدة لما رأى عند الاحتلام صورة الوقاع، ثم لا يخفى أن الذي قضى عمره في الفقه يرى من الأحوال المتعلقة بالعلم والعلماء أكثر مما يراه التاجر الذي قضى عمره في التجارة، والتاجر يرى من الأحوال المتعلقة بالتجارة وأسبابها أكثر مما يراه الطبيب والفقيه؛ لأنه إنما يظهر في حال النوم ما حصل له مناسبة مع القلب بطول الإلّف أو بسبب آخر من الأسباب، والموت شبيهه النوم ولكنه فوقه، ولكن سكرات الموت وما يتقدمه من العشية قريب من النوم، فيقتضي ذلك تذكر المألوف وعوده

إلى القلب، وأحد الأسباب المرجحة لحصول ذكره في القلب طول الإلف، فطول الإلف بالمعاصي والطاعات أيضاً مرجح وكذلك تخالف أيضاً منامات الصالحين منامات الفساق، فتكون غلبة الإلف سبب لأن تتضمن صورة فاحشة في قلبه وتميل إليها نفسه، فربما تقبض عليها روحه فيكون ذلك سبب سوء خاتمته، وإن كان أصل الإيمان باقياً بحيث يرجي له الخلاص منها، وكما أن ما يخطر في اليقظة إنما يخطر بسبب خاص يعلمه الله تعالى، فكذلك أحاد المنامات لها أسباب عند الله تعالى نعرف بعضها ولا نعرف بعضها، كما أنا نعلم أن الخاطر ينتقل من الشيء إلى ما يناسبه إما بالمشابهة وإما بالمضادة وإما بالمقارنة بأن يكون قد ورد على الحس منه. أما بالمشابهة فبأن ينظر إلى جميل فيتذكر جميلاً آخر، وأما بالمضادة فبأن ينظر إلى جميل فيتذكر قبيحاً ويتأمل في شدة التفاوت بينهما، وأما بالمقارنة فبأن ينظر إلى فرس قد رآه من قبل مع إنسان فيتذكر ذلك الإنسان، وقد ينتقل الخاطر من شيء إلى شيء ولا يدري وجه مناسبتة له، وإنما يكون ذلك بواسطة وواسطتين، مثل أن ينتقل من شيء ثان، ومنه إلى شيء ثالث، ثم ينسى الثاني، ولا يكون بين الثالث والأول مناسبة، ولكن يكون بينه وبين الثاني مناسبة وبين الثاني والأول مناسبة، فكذلك لانتقالات الخواطر في المنامات أسباب من هذا الجنس، وكذلك عند سكرات الموت، فعلى هذا - والعلم عند الله - من كانت الخياطة أكثر أشغاله، فإنك تراه يومئذ إلى رأسه كأنه يأخذ إبرته ليخيط بها ويبل إصبعه التي لها عادة بالكسبان ويأخذ الإزار من فوقه ويقدره ويشيره كأنه يتعاطى تفصيله، ثم يمد يده إلى المقرض، ومن أراد أن يكف خاطره عن الانتقال عن المعاصي والشهوات فلا طريق له إلا المجاهدة طول العمر في فطامه نفسه عنها فمع الشهوات عن القلب، فهذا هو القدر الذي يدخل تحت الاختيار ويكون طول المواظبة على الخير وتخليه الفكر عن الشر عدة وذخيرة لحالة سكرات الموت، فإنه يموت المرء على ما عاش عليه ويحشر على ما مات عليه، ولذلك نقل عن بقال أنه كان يلقي عند الموت كلمتي الشهادة فيقول: خمسة ستة أربع، فكان مشغول النفس بالحساب الذي طال إلفه له قبل الموت، وقال بعض العارفين من السلف: العرش جوهرة تتلألأ نوراً. فلا يكون العبد على حال إلا انطبع مثاله في العرش على الصورة التي كان عليها، فإذا كان في سكرات الموت كشف له صورته من العرش؛ فربما يرى نفسه على صورة معصية، وكذلك يكشف له يوم القيامة فيرى أحوال نفسه فيأخذ من الحياء والخوف ما يجلب عن الوصف، وما ذكره صحيح، وسبب الرؤيا الصادقة قريب من ذلك، فإن النائم يدرك ما يكون في المستقبل منمطالعة اللوح المحفوظ وهي جزء من أجزاء النبوة، فإذا رجع سوء الخاتمة إلى أحوال القلب واختلاج الخواطر ومقلب القلوب هو الله، والاتفاقات المقتضية لسوء الخواطر غير داخلية تحت الاختيار دخولاً كلياً وإن كان لطول الإلف فيه تأثير، فهذا عظم خوف العارفين من سوء الخاتمة، لأنه لو أراد الإنسان أن لا يرى في المنام إلا أحوال الصالحين وأحوال الطاعات والعبادات عسر عليه ذلك وإن كانت كثرة الصلاح والمواظبة عليه مما يؤثر فيه، ولكن اضطرابات الخيال لا تدخل بالكلية تحت الضبط، وإن كان الغالب مناسبة ما يظهر في النوم لما غلب في اليقظة، حتى سمعت الشيخ أبا علي الفارمذي رحمة الله عليه يصف لي وجوب حسن أدب المريدي لشيخه وأن لا يكون في قلبه إنكار لكل ما يقوله ولا في لسانه مجادلة عليه فقال: حكيت لشيخ أبي القاسم الكرمانى مناماً لي وقلت: رأيتك قلت لي كذا، فقلت: لم ذاك؟ قال: فهجرني شهراً ولم يكلمني وقال: لولا أنه كان في باطنك تجويز المطالبة وإنكار ما أقوله لك لما جرى ذلك على لسانك في النوم. وهو كما قال؛ إذ قلما يرى الإنسان في منامه خلاف ما يغلب في اليقظة على قلبه، فهذا هو القدر الذي نسبح بذكره في علم المعاملة من أسرار أمر الخاتمة، وما وراء ذلك في علم المكاشفة، وقد ظهرت لك بهذا أن الأمن من سوء الخاتمة بأن ترى الأشياء كما هي عليه من غير جهل وترجي جميع العمر في طاعة الله من غير معصية؛ فإن كنت تعلم أن ذلك محال أو عسير فلا بد وأن يغلب عليك من الخوف ما غلب على العارفين حتى يطول بسببه بكأوك ونياحتك ويدوم به حزنك وقلقك، كما سنحكيه من أحوال الأنبياء والسلف الصالحين ليكون ذلك أحد الأسباب المهيجة لنار الخوف من قلبك، وقد عرفت بهذا أن أعمال العمر كلها ضائعة إن لم يسلم في النفس الأخير الذي عليه خروج الروح، وإن سلامته مع اضطراب أمواج الخواطر مشكلة جداً، ولذلك كان مطرف بن عبد الله يقول: إني لا أعجب ممن هلك كيف هلك، ولكني أعجب ممن نجا كيف نجا!

ولذلك قال حامد اللاف: إذا سعدت الملائكة بروح العبد المؤمن وقد مات على الخير والإسلام تعجبت الملائكة منه وقالوا: كيف نجا هذا من دنيا فسد فيها خيارنا.

وكان الثوري يوماً يبكي فقيل له: علام تبكي؟ فقال: بكينا على الذنوب زماناً، فالآن نبكي على الإسلام. وبالجملة من وقعت سفينته في لجة البحر وهجمت عليه الرياح العاصفة واضطربت الأمواج كانت النجاة في حقه أبعد من الهلاك، وقلب المؤمن أشد اضطراباً من السفينة، وأمواج الخواطر أعظم التطاماً من أمواج البحر، وإنما المخوف عند الموت خاطر سوء يخطر فقط، وهو الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة خمسين سنة حتى لا يبقى بينه وبين الجنة إلا فواق ناقة فيختم له بما سبق به الكتاب" ولا يتسع فواق

الناقة لأعمال توجب الشقاوة، بل هي الخواطر التي تضطرب وتخطر خطور البرق الخاطف. وقال سهل: رأيت كأني أدخلت الجنة، فرأيت ثلثمائة نبي فسألتهم: ما أخوف ما كنتم تخافون في الدنيا؟ قالوا: سوء الخاتمة.

ولأجل هذا الخطر العظيم كانت الشهادة مغبوطاً عليها، وكان موت الفجأة مكروهاً، أما الموت فجأة فلأنه ربما يتفق عند غلبة خاطر سوء واستيلائه على القلب لا يخلو عن أمثاله إلا أن يدفع بالكرهية أو بنور المعرفة. وأما الشهادة فلأنها عبارة عن قبض الروح في حالة لم يبق في القلب سوى حب الله تعالى وخرج حب الدنيا والأهل والمال والولد وجميع الشهوات عن القلب، إذ لا يهجم على صف القتال موطناً نفسه على الموت إلا حباً لله وطلباً لمرضاته وبائناً دنياه بأخرته وراضياً بالبيع الذي بايعه الله به، إذ قال تعالى: " إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة" والبائع راغب عن المبيع لا محالة ومخرج حبه عن القلب؛ ومجرد حب العوض المطلوب في قلبه، ومثل هذه الحالة قد يغلب على القلب في بعض الأحوال ولكن لا يتفق زهوق الروح فيها، فصفت القتال سبب لزهوق الروح على مثل هذه الحالة، هذا فيمن ليس يقصد الغلبة والغنيمة وحسن الصيت بالشجاعة فإن من هذا حاله وأن قتل في المعركة فهو بعيد عن مثل هذه الرتبة كما دلت عليه الأخبار. وإذ بان ذلك معنى سوء الخاتمة وما هو مخوف فيها فاشتغل بالاستعداد لها، فواظب على ذكر الله تعالى وأخرج من قلبك حب الدنيا، واحرس عن فعل المعاصي جوارحك وعن الفكر فيها قلبك، واحترز عن مشاهدة المعاصي ومشاهدة أهلها جهديك، فإن ذلك أيضاً يؤثر في قلبك ويصرف إليه فكرك وخواطرك، وإياك أن تسوف وتقول: سأستعد لها إذا جاءت الخاتمة، فإن كل نفس من أنفاسك خاتمتك، إذ يمكن أن تختطف فيه روحك فراقب قلبك في كل تطريفة، وإياك أن تهمله لحظة فلعل تلك اللحظة خاتمتك، إذ يمكن أن تختطف فيها روحك، هذا ما دمت في يقظتك، وأما إذا نمت فإياك أن تنام إلا على طهارة الظاهر والباطن وأن يغلبك النوم إلا بعد غلبة ذكر الله على قلبك، لست أقول على لسانك فإن حركة اللسان بمجرد ما ضعيفة الأثر، واعلم قطعاً أنه لا يغلب عند النوم على قلبك إلا ما كان النوم غالباً عليه، وأنه لا يغلب في النوم إلا ما كان غالباً قبل النوم، ولا ينبعث عن نومك إلا ما غلب على قلبك في نومك، والموت شبيه النوم واليقظة، فكما لا ينام العبد إلا على ما غلب عليه في يقظته ولا يستيقظ إلا على ما كان عليه في نومه، فكذلك لا يموت المرء إلا على ما عاش عليه ولا يحشر إلا على ما مات عليه، وتحقق قطعاً ويقيناً أن الموت والبعث حالتان من أحوالك كما أن النوم واليقظة حالتان من أحوالك، وأمن بهذا تصديقاً باعتقاد القلب إن لم تكن أهلاً لمشاهدة ذلك بعين اليقين ونور البصيرة، وراقب أنفاسك ولحظاتك، وإياك أن تغفل عن الله طرفه عين فإنك إذا فعلت ذلك كله كنت مع ذلك في خطر عظيم، فكيف إذا لم تفعل. والناس كلهم هلكي إلا العالمون، والعالمون كلهم هلكي إلا العاملون، والعالمون كلهم هلكي إلا المخلصون، والمخلصون على خطر عظيم. واعلم أن ذلك لا يتيسر لك ما تقنع من الدنيا بقدر ضرورتك، وضرورتك مطعم وملبس ومسكن والباقي كله فضول، والضرورة من المطعم ما يقيم صلبك ويسد رمقك، فينبغي أن يكون تناولك تناول مضطر كاره له، ولا تكون رغبتك فيه أكثر من رغبتك في قضاء حاجتك، إذ لا فرق بين إدخال الطعام في البطن وإخراجه، فهما ضرورتان في الجبلة، وكما لا يكون قضاء الحاجة من همتك التي يشتغل بها قلبك فلا ينبغي أن يكون تناول الطعام من همتك، واعلم أنه إن كان همتك ما يدخل بطنك فقيمته ما يخرج من بطنك، وإذا لم يكن قصدك من الطعام إلا التقوى على عبادة الله تعالى كقصدك من قضاء حاجتك، فعلامه ذلك تظهر من ثلاثة أمور: من مأكوك في وقته وقدره وجنسه، أما الوقت فأقله أن يكتفي في اليوم والليلة بمرة واحدة فيواظب على الصوم، وأما قدره فبأن لا يزيد على ثلث البطن، وأما جنسه فأن لا يطلب لذائذ الأطعمة بل يقنع بما يتفق، فإن قدرت على هذه الثلاث وسقطت عنك مؤونة الشهوات واللذائذ قدرت بعد ذلك على ترك الشبهات وأمكنتك أن لا تأكل إلا من حله، فإن الحلال يعز ولا يفي بجميع الشهوات، وأما ملبسك فليكن غرضك منه دفع الحر والبرد وستر العورة؛ فكل ما دفع البرد عن رأسك ولو قلنسوة يدانق فطلبك غيره فضول منك يضيع فيه زمانك ويلزمك الشغل الدائم والعناء القائم في تحصيله بالكسب مرة والطمع أخرى من الحرام والشبهة، وقس بهذا ما تدفع به الحر والبرد عن بدنك، فكل ما حصل مقصود اللباس إن لم تكن به في خساسة قدره وجنسه لم يكن لك موقف ومرد بعده. بل كنت ممن لا يملأ بطنه إلا التراب، وكذلك المسكن إن اكتفيت بمقصوده كفتك السماء سقفاً والأرض مستقراً، فإن غلبك حر أو برد فعليك بالمساجد، فإن طلبت مسكناً خاصاً طال عليك وانصرف إليه أكثر عمرك، وعمرك هو بضاعتك، ثم إن تيسر لك فقصدت من الحائض سوى كونه حائلاً بينك وبين الأبدان، ومن السقف سوى كونه دافعاً للأطمار، فأخذت ترفع الخيطان وتزين السقوف فقد تورطت في مهواة يبعد رفيك منها، وهكذا جميع ضرورات أمورك إن اقتصررت عليها تفرغت لله و قدرت على التزود لأخرتك والاستعداد لخاتمتك، وإن جاوزت حد الضرورة إلى أودية الأمانى تشعبت همومك ولم يبال الله في أي واد أهلكك؛ فاقبل هذه النصيحة ممن هو أحوج إلى النصيحة منك. واعلم أن متسع التدبير والتزود والاحتياط هذا العمر القصير، فإذا دفعته يوماً بيوم في تسويفك أو غفلتك اختطفت فجأة في غير وقت

إرادتك ولم تفارقك حسرتك وندامتك، فإن كنت لا تقدر على ملازمة ما أرشدت إليه بضعف خوفك إذا لم يكن فيما وصفناه من أمر الخاتمة كفاية في تخويفك فإننا سنورد عليك من أحوال الخائفين ما نرجو أن يزيل بعض القساوة عن قلبك، فإنك تتحقق أن عقل الأنبياء والأولياء والعلماء وعملهم ومكانهم عند الله تعالى لم يكن دون عقلك وعملك ومكانك، فتأمل مع كلال بصيرتك وعمش عين قلبك في أحوالهم: لم اشتد بهم الخوف وطال بهم الحزن والبكاء حتى كان بعضهم يصعق وبعضهم يدهش وبعضهم يسقط مغشياً عليه وبعضهم يخز ميتاً إلى الأرض، ولا غرو إن كان ذلك لا يؤثر في قلبك قلوب الغافلين مثل الحجارة أو أشد قسوة " وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون ".

الشرط الثاني في الخوف

بيان أحوال الأنبياء والملائكة في الخوف

روت عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا تغير الهواء وهبت ريح عاصفة يتغير وجهه فيقوم ويتردد في الحجرة ويدخل ويخرج كل ذلك خوفاً من عذاب الله.

وقرأ صلى الله عليه وسلم آية في سورة الواقعة فصعق.

وقال تعالى " وخر موسى صعقاً ".

ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم صورة جبريل عليه السلام بالأبطح فصعق.

وروي أنه عليه السلام كان إذا دخل في الصلاة يسمع لصدره أزيزاً كأزيز المرجل.

وقال صلى الله عليه وسلم: " ما جاءني جبريل قط إلا وهو يرعد فرقاً من الجبار ".

وقيل: لما ظهر على إبليس ما ظهر طفق جبريل وميكائيل عليهما السلام يبكيان، فأوحى الله إليهما: ما لكما تبكيان كل هذا البكاء؟ فقالا: يا رب، ما نأمن مكرك، فقال الله تعالى: هكذا كونا، لا تأمنا مكري.

وعن محمد بن المنكدر قال: لما خلقت النار طارت أفئدة الملائكة من أماكنها، فلما خلق بنو آدم عادت. وعن أنس أنه عليه السلام سأل جبريل: " ما لي لا أرى ميكائيل يضحك؟ " فقال جبريل: ما ضحك ميكائيل منذ خلقت النار ".

ويقال: إن الله تعالى ملائكة لم يضحك أحد منهم منذ خلقت النار مخافة أن يغضب الله عليهم فيعذبهم بها.

وقال ابن عمر رضي الله عنهما: خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى دخل بعض حيطان الأنصار فجعل يلتقط من التمر ويأكل، فقال: يا ابن عمر مالك لا تأكل؟ فقلت: يا رسول الله لا أشتهي، فقال: " لكني أشتهي وهذا صبح رابعة لم أذق طعاماً ولم أجده ولو سألت ربي لأعطني ملك قيصر وكسرى فكيف بك يا ابن عمر إذا بقيت في قوم يخبثون رزق سنتهم ويضعف اليقين في قلوبهم؟ " قال فوالله ما برحنا ولا قمنا حتى نزلت " وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم وهو السميع العليم " قال فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إن الله لم يأمركم بكنز المال ولا بإتباع الشهوات، من كنز دنائير يريد بها حياة فانية فإن الحياة بيد الله، ألا وإني لا أكنز ديناراً ولا درهماً ولا أخبأ رزقاً لعد ".

وقال أبو الدرداء: كان يسمع أزيز قلب إبراهيم خليل الرحمن صلى الله عليه وسلم إذا قام في الصلاة من مسيرة ميل خوفاً من ربه.

وقال مجاهد: بكى داود عليه السلام أربعين يوماً ساجداً لا يرفع رأسه حتى نبت المرعى من دموعه وحتى غطى رأسه، فنودي: يا داود أجاجع أنت فتطعم؟ أم ظمآن فتسقي؟ أم عار فتكسى؟ فنحب نحية هاج العود فاحترق من حر

جوفه، ثم أنزل الله تعالى عليه التوبة والمغفرة فقال: يا رب اجعل خطيئتي في كفي فصارت خطيئته في كفه مكتوبة، فكان لا يبسط طعام ولا لشراب ولا لغيره إلا رآها فأبكته، قال: وكان يؤتى بالقدح ثلثاه فإذا تناوله أبصر خطيئته فما يضعه على شفته حتى يفيض القدح من دموعه. ويروى عنه عليه السلام أنه ما رفع رأسه إلى السماء حتى مات حياء من الله عز وجل، وكان يقول في مناجاته: إلهي إذا ذكرت خطيئتي ضاقت علي الأرض برحبها، وإذا ذكرت رحمتك ارتدت إلي روحي، سبحانك إلهي أتيت أطباء عبادك ليداؤوا خطيئتي فكلهم عليك يداني، فبؤساً للقناطين من رحمتك.

وقال الفضيل: بلغني أن داود عليه السلام ذكر ذنبه يوم فوثب صارخاً واضعاً يده على رأسه حتى لحق بالجبال فاجتمعت إليه السباع فقال: ارجعوا لا أريدكم، إنما أريد كل بكاء على خطيئته فلا يستقبلني إلا البكاء، ومن لم يكن ذا خطيئة فما يصنع بداد الخطاء. وكان يعاتب في كثرة البكاء فيقول: دعوني أبكي قبل خروج يوم البكاء قبل تخريق العظام واشتغال الحشا وقبل أن يؤمر بي ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

وقال عبد العزيز بن عمر: لما أصاب داود الخطيئة نقص صوته فقال: إلهي بح صوتي في صفاء أصوات الصديقين.

وروي أنه عليه السلام لما طال بكأوه ولم ينفعه ذلك ضاق ذرعه واشتد غمه، فقال: يا رب أما ترحم بكائي؟ فأوحى الله تعالى إليه: يا داود، نسيت ذنبيك وذكرت بكاءك، فقال: إلهي وسيدي كيف أنسى ذنبي وكنت إذا تلوت الزبور كف الماء الجاري عن جريه وسكن هبوب الريح وأظلني الطير على رأسي وأنست الوحوش إلى محرابي، إلهي وسيدي فما هذه الوحشة التي بيني وبينك، فأوحى الله تعالى إليه: يا داود ذلك أنس الطاعة وهذه وحشة المعصية، يا داود آدم خلق من خلقي خلقتة بيدي ونفخت فيه من روحي وأسجدت له ملائكتي وألبسته ثوب كرامتي وتوجته بتاج وقاري، وشكا لي الوحدة فزوجته حواء أمي وأسكنته جنتي، عصاني فطردته عن جوارى عريانا ذليلاً، يا داود اسمع مني والحق أقول: أطعنا فأطعناك، وسألنا فأعطيناك، وعصيتنا فأمهلناك، وإن عدت إلينا على ما كان منك قبلناك.

وقال يحيى بن أبي كثير: بلغنا أن داود عليه السلام كان إذا أراد أن ينوح مكث قبل ذلك سبعا لا يأكل طعاماً ولا يشرب الشراب ولا يقرب النساء، فإذا كان قبل ذلك بيوم أخرج له المنبر إلى البرية، فأمر سليمان أن ينادي بصوت يستقري البلاد وما حولها من الغياض والأكام والجبال والبراري والصوامع والبيع، فينادي فيها: إلا من أراد أن يسمع نوح داود على نفسه فليأت، قال: فتأتي الوحوش من البراري والأكام وتأتي السباع من الغياض وتأتي الهوام من الجبال وتأتي الطير من الأوكار وتأتي العذارى من خورهن، وتجتمع الناس لذلك اليوم، ويأتي داود حتى يرقى المنبر ويحيط به بنو إسرائيل وكل صنف على حدته محيطون به وسليمان عليه السلام قائم على رأسه، فيأخذ في الثناء على ربه فيضجون بالبكاء والصراخ، ثم يأخذ في ذكر الجنة والنار فتموت الهوام وطائفة من الوحوش والسباع والناس، ثم يأخذ في أهوال القيامة وفي النياحة على نفسه فيموت من كل نوع طائفة، فإذا رأى سليمان كثرة الموتى قال: يا أبتاه قد مزقت المستمعين كل ممزق وماتت طوائف من بني إسرائيل ومن الوحوش والهوام، فيأخذ في الدعاء، فبينما هو كذلك إذ ناداه بعض بني إسرائيل: يا داود عجلت بطلب الجزاء على ربك! قال فيخر داود مغشياً عليه، فإذا نظر سليمان إلى ما أصابه أتى بسرير فحملة عليه ثم أمر منادياً ينادي ألا من كان له مع داود حميم أو قريب فليأت بسرير فليحملة فإن الذين كانوا معه قد قتلهم ذكر الجنة والنار فكانت المرأة تأتي بالسرير وتحمل قريبها وتقول: يا من قتله ذكر النار، يا من قتله خوف الله، ثم إذا أفاق داود قام ووضع يده على رأسه ودخل بيت عبادته وأغلق بابيه ويقول: يا إله داود أغضبان أنت على داود، ولا يزال يناجي ربه، فيأتي سليمان ويقعد على الباب ويستأذن ثم يدخل ومعه قرص من شعير فيقول: يا أبتاه تقو بهذا على ما تريد، فيأكل من ذلك القرص ما شاء الله ثم يخرج إلى بني إسرائيل فيكون بينهم.

وقال يزيد الرقاشي: خرج داود ذات يوم بالناس يعظهم ويخوفهم، فخرج في أربعين ألفاً فمات منهم ثلاثون ألفاً وما رجع إلا في عشرة آلاف، قال: وكان له جاريتان، حتى إذا جاءه الخوف وسقط فاضطرب قعدتا على صدره وعلى رجليه مخافة أن تتفرق أعضاؤه ومفاصله فيموت. وقال ابن عمر رضي الله عنهما: دخل يحيى بن زكريا عليهما السلام بيت المقدس وهو ابن ثمان حجج، فنظر إلى عبادهم قد لبسوا مدارع الشعر والصوف، ونظر إلى مجتهديهم قد خرخوا التراقي وسلخوا فيها السلاسل وشدوا أنفسهم إلى أطراف بيت المقدس، فهاله ذلك، فرجع إلى أبويه فمر بصبيان يلعبون، فقالوا له: يا يحيى، هلم بنا لنلعب، فقال: إني لم أخلق للعب، قال: فأتى أبويه فسألها أن يدرعاها الشعر ففعلا، فرجع إلى بيت المقدس وكان يخدمه نهاراً ويصبح فيه ليلاً، حتى أتت عليه خمس عشرة سنة، فخرج

ولزم أطواد الأرض وغيران الشعاب، فخرج أبواه في طلبه فأدركاه على بحيرة الأردن، وقد أنقعي صلى الله عليه وسلم، فانزل الله تعالى: " عبس وتولى أن جاءه العمى، وما يدريك لعله يزكى، أو يذكر فتنتفه الذكري " يعني ابن مكتوم " أما من استغنى فأنت له تصدى " يعني هذا الشريف. وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: " يؤتى بالعبد يوم القيامة فيعتذر الله تعالى إليه كما يعتذر الرجل للرجل في الدنيا، فيقول: وعزتي وجلالي ما زويت الدنيا عنك لهوانك علي ولكن لما أعددت لك من الكرامة والفضيلة، أخرج يا عبدي إلى هذه الصفوف، فمن أطعمك في أو كسأك في يريده بذلك وجهي فخذ بيده فهو لك، والناس يومئذ قد ألجمهم العرق فيتخلل الصفوف وينظر من فعل ذلك به فيأخذ بيده ويدخله الجنة". وقال عليه السلام: " أكثروا معرفة الفقراء واتخذوا عندهم الأيادي فإن لهم دولة " قالوا: يا رسول الله، وما دولتهم؟ قال: " إذا كان يوم القيامة قيل لهم انظروا فمن أطعمكم كسرة أو سقاكم شربة أو كساكم ثوباً فخذوا بيده ثم امضوا به إلى الجنة". وقال صلى الله عليه وسلم: " دخلت الجنة فسمعت حركة أمامي فنظرت فإذا بلال، ونظرت في أعلاها فإذا فقراء أمتي وأولادهم، ونظرت في أسفلها فإذا من الأغنياء والنساء قليل، فقلت: يا رب ما شأنهم؟ قال: أما النساء فأضرب بهن الأحمران الذهب والحريز، وأما الأغنياء فاشتغلوا بطول الحساب، وتفقدت أصحابي فلم أر عبد الرحمن بن عوف، ثم جاءني بعد ذلك وهو يبكي، فقلت: ما خلفك عني؟ قال: يا رسول الله ما وصلت إليك حتى لقيت المشيبات وظننت أنني لا أراك، فقلت: ولم؟ قال: كنت أحاسب بمالي". فانظر إلى هذا وعبد الرحمن صاحب السابقة العظيمة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو من العشرة المخصوصين بأنهم من أهل الجنة، وهو من الأغنياء الذين قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إلا من قال بالمال هكذا وهكذا" ومع هذا فقد استنصر بالغنى إلى هذا الحد. ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على رجل فقير فلم ير له شيئاً فقال: لو قسم نور هذا على أهل الأرض لوسعهم". وقال صلى الله عليه وسلم: " ألا أخبركم بملوك أهل الجنة؟" قالوا: بلى يا رسول الله، قال: " كل ضعيف مستضعف أغبر أشعث ذي طمرين لا يؤبه له؛ لو أقسم على الله لأبره". وقال عمران بن حصين: كانت لي من رسول الله صلى الله عليه وسلم منزلة وجه، فقال: "يا عمران، إن لك عندنا منزلة وجهاً، فهل لك في عيادة فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قلت: نعم بأبي أنت وأمي يا رسول الله، فقام وقمت معه حتى وقف بباب فاطمة، ففرع الباب وقال: " السلام عليكم، أدخل؟" فقالت: ادخل يا رسول الله. قال: " أنا ومن معي؟" قالت: ومن معك يا رسول الله؟ قال: " عمران" فقالت فاطمة: والذي بعثك بالحق نبياً ما علي إلا عبادة. قال: " اصنعي بها هكذا وهكذا " وأشار بيده، فقالت: هذا جسدي قد واريته فكيف برأسي؟ فألقى إليها ملاءة كانت عليه خلقة فقال: " شدي على رأسك " ثم أذنت له فدخل فقال: " السلام عليك يا ابنتاه، كيف أصبحت؟" قالت: أصبحت والله وجعة وزادني وجعاً على ما بي أي لست أقدر على طعام أكله فقد أضرب بي الجوع، فبكي رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: " لا تجزعي يا ابنتاه فوالله ما ذقت طعاماً منذ ثلاث، وإني لأكرم على الله منك، ولو سألت ربي لأطعمني ولكني أثرت الآخرة على الدنيا " ثم ضرب بيده على منكبها وقال لها: "أبشري فوالله إنك لسيدة نساء أهل الجنة " قال: فأين أسية امرأة فرعون ومريم بنت عمران؟ قال: " أسية سيدة نساء عالمها، ومريم سيدة نساء عالمها، وأنت سيدة نساء عالمك، إنكن في بيوت من قصب لا أذى فيها ولا صخب ولا نصب "، ثم قال لها: " اقتعي بابن عمك فوالله لقد زوجتك سيداً في الدنيا وسيداً في الآخرة". وروي عن علي كرم الله وجهه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " إذا أبغض الناس فقراءهم وأظهروا عمارة الدنيا وتكالبوا على جمع الدراهم رماهم الله بأربع خصال: باللقط من الزمان، والجور من السلطان، والخيانة من ولاة الأحكام، والشوكة من الأعداء". وأما الآثار: فقد قال أبو الدرداء رضي الله عنه: ذو الدرهمين أشد حيساً - أو قال أشد حساباً - من ذي الدرهم. وأرسل عمر رضي الله عنه إلى سعيد بن عامر بألف دينار، فجاء حزيناً كئيباً فقالت امرأته: أحدث أمر؟ قال: أشد من ذلك، ثم قال: أريني درعك الخلق، فشقه وجعله صرراً وفرقه، ثم قام يصلي ويبكي إلى الغداة، ثم قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " يدخل فقراء أمتي الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام، حتى إن الرجل من الأغنياء يدخل في غمارهم فيؤخذ بيده فيستخرج". وقال أبو هريرة: ثلاثة يدخلون الجنة بغير حساب: رجل يريد أن يغسل ثوبه فلم يكن له خلق يلبسه، ورجل لم ينصب على مستوقد قدرين، ورجل دعا بشرايه فلا يقال له أيها تريد. وقيل: جاء فقير إلى مجلس الثوري رحمه الله فقال له: تخطى لو كنت غنياً لما قربتك، وكان الأغنياء من أصحابه يودون أنهم فقراء لكثرة تقريبه للفقراء وإعراضه عن الأغنياء. وقال المؤمل: ما رأيت الغني أدل منه في مجلس الثوري، ولا رأيت الفقير أعز منه في مجلس الثوري رحمه الله. وقال بعض الحكماء: مسكين ابن آدم لو خاف من النار كما يخاف الفقر لنجا منهما جميعاً، ولو رغب في الجنة كما يرغب في الغنى لفاز بهما جميعاً، ولو خاف الله في الباطن كما يخاف خلقه في الظاهر لسعد في الدارين جميعاً. وقال ابن عباس: ملعون من أكرم بالغنى وأهان بالفقر. وقال يحيى بن معاذ: حبك للفقراء من أخلاق المرسلين، وإيثارك مجالستهم من علامة الصالحين، وفرارك من صحبتهم من علامة المنافقين. وفي الأخبار عن الكتب السالفة: أن الله تعالى أوحى إلى بعض أنبيائه عليهم السلام: احذر أن أمقتك فتسقط من عيني فأصب عليك الدنيا صباً. ولقد كانت عائشة رضي الله عنها تفرق مائة ألف درهم في يوم واحد يوجهها إليها معاوية وابن عامر

وغيرهما، وإن درعها لمرفوع، وتقول لها الجارية: لو اشتريت لك بدرهم لحماً تفطرين عليه! وكانت صائمة فقالت: لو ذكرتيني لفعت، وكان قد أوصاها رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: " إن أردت للقوق بي فعليك بعيش الفقراء، وإياك ومجالسة الأغنياء، ولا تنزعي درعك حتى ترقعيه". وجاء رجل إلى إبراهيم بن أدهم بعشرة آلاف درهم، فأبى عليه أن يقبلها، فألح عليه الرجل، فقال له إبراهيم: أتريد أن أمحو اسمي من ديوان الفقراء بعشرة آلاف درهم؟ لا أفعل ذلك أبداً - رضي الله عنه.

بيان فضيلة خصوص الفقراء من الراضين والقانعين والصادقين

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " طوبى لمن هدي إلى الإسلام وكان عيشه كفافاً وقنع به" وقال صلى الله عليه وسلم: " يا معشر الفقراء أعطوا الله الرضا من قلوبكم تطفروا بثواب فقركم وإلا فلا". فالأول القانع، وهذا الراضي، ويكاد يشعر هذا بمفهومه: أن الحرير لا ثواب له على فقره ولكن العمومات الواردة في فضل الفقر تدل على أن له ثواباً كما سيأتي تحقيقه، فعمل المراد بعدم الرضا هو الكراهة لفعل الله في حبس الدنيا عنه، ورب راغب في المال لا يخطر بقلبه إنكار على الله تعالى ولا كراهة في فعله، فتلك الكراهة هي التي تحبط ثواب الفقر. وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: " إن لكل شيء مفتاحاً ومفتاح الجنة حب المساكين والفقراء لصبرهم، هم جلساء الله تعالى يوم القيامة". وروي عن علي كرم الله وجهه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: " أحب العباد إلى الله تعالى الفقير القانع برزقه الراضي عن الله تعالى". وقال صلى الله عليه وسلم: " اللهم اجعل قوت آل محمد كفافاً". وقال: " ما من أحد غني ولا فقير إلا ورد يوم القيامة أنه كان أوتي قوتاً في الدنيا". وأوحى الله تعالى إلى إسماعيل عليه السلام: اطلبني عند المنكسرة قلوبهم. قال: ومن هم؟ قال: الفقراء الصادقون. وقال صلى الله عليه وسلم: " لا أحد أفضل من الفقير إذا كان راضياً". وقال صلى الله عليه وسلم: " يقول الله تعالى يوم القيامة: أين صفوتي من خلقي؟ فنقول الملائكة: ومن هم يا ربنا؟ فيقول: فقراء المسلمين القانعون بعطائي الراضون بقدرتي، أدخلوهم الجنة. فيدخلونها ويأكلون ويشربون والناس في الحساب يترددون". فهذا في القانع والراضي، وأما الزاهد فسنذكر فضله في الشطر الثاني من الكتاب إن شاء الله تعالى. وأما الآثار في الرضا والقناعة فكثيرة، ولا يخفى أن القناعة يضادها الطمع. وقد قال عمر رضي الله تعالى عنه: إن الطمع فقر والياس غنى، وإنه من يئس عما في أيدي الناس وقنع استغنى عنهم. وقال أبو مسعود رضي الله تعالى عنه: ما من يوم إلا وملك ينادي من تحت العرش: يا ابن آدم قليل يكفيك خير من كثير يطغيك. وقال أبو الدرداء رضي الله تعالى عنه: ما من أحد إلا وفي عقله نقص، وذلك انه إذا أتته الدنيا بالزيادة ظل فرحاً مسروراً والليل والنهار دائبان في هدم عمره ثم لا يحزنه ذلك، ويح ابن آدم ما ينفع مال يزيد وعمر ينقص. وقيل لبعض الحكماء: ما الغنى؟ قال: قلة تمنيك ورضاك بما يكفيك. وقيل: كان إبراهيم بن أدهم من أهل النعم بخراسان، فبينما هو يشرف من قصر له ذات يوم إذ نظر إلى رجل في فناء القصر وفي يده رغيف يأكله، فلما أكل نام، فقال لبعض غلمانه: إذا قام فجنني به، فلما قام جاء به إليه، فقال إبراهيم: أيها الرجل أكلت الرغيف وأنت جائع؟ قال: نعم، قال: فشبعته؟ قال: نعم، قال: ثم نمت طيباً؟ قال: نعم، فقال إبراهيم في نفسه: فما أصنع بالدنيا والنفس تقنع بهذا القدر. ومر رجل بعامر بن عبد القيس وهو يأكل ملحاً وبقلاً، فقال له: يا عبد الله أرضيت من الدنيا بهذا؟ فقال: ألا أدلك على من رضي بشر من هذا؟ قال: بلى، قال: من رضي بالدنيا عوضاً عن الآخرة. وكان محمد بن واسع رحمة الله عليه يخرج خبزاً يابساً فيبله بالماء ويأكله بالملح ويقول: من رضي من الدنيا بهذا لم يحتج إلى أحد. وقال الحسن رحمه الله: لعن الله أقواماً أقسم لهم الله تعالى ثم لم يصدقوه، ثم قرأ " وفي السماء رزقكم وما توعدون ورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون ". وكان أبو ذر رضي الله عنه يوماً في الناس فأنته امرأته فقالت له: أتجلس بين هؤلاء؟ والله ما في البيت هفة ولا سفة، فقال: قربي وذري رحم إن الغني من استغنى عن الناس. وقد قيل في هذا المعنى أيضاً:

مقدراً أي باب منه يغلقه	يا جامعاً مانعاً والدهر يرمقه
أغادياً أم بها يسري فتطرقه	مفكراً كيف تأتيه منيته
يا جامع المال أياماً تفرقه	جمعت مالاً فقل لي هل جمعت له
ما المال مالك إلا يوم تنفقه	المال عندك مخزون لو ارثه
أن الذي قسم الأرزاق يرزقه	أرفه ببال فتى يغدو على ثقة
والوجه منه جديد ليس يخلقه	فالعرض منه مصون ما يدنسه
لم يبق في ظلها هم يؤرقه	إن القناعة من يحلل بساحتها

بيان فضيلة الفقر

اعلم أن الناس قد اختلفوا في هذا، فذهب الجنيذ والخواص والأكثرين إلى تفضيل الفقر، وقال ابن عطاء: الغني الشاكر القاتم بحقه أفضل من الفقير الصابر. ويقال أن الجنيذ دعا على ابن عطاء لمخالفته إياه في هذا فأصابته محنة، وقد ذكرنا ذلك في كتاب الصبر وبيئنا أوجه التفاوت بين الصبر والشكر - ومهدنا سبيل طلب الفضيلة في الأعمال والأحوال وأن ذلك لا يمكن إلا بتفصيل. فأما الفقر والغنى إذا أخذنا مطلقاً لم يسترب من قرأ الأخبار والآثار في تفضيل الفقر، ولا بد فيه من تفصيل فنقول إنما يتصور الشك في مقامين: أحدهما فقير صابر ليس بحريص على الطلب، بل هو قانع أو راض بالإضافة إلى غني منفق ماله في الخيرات ليس حريصاً على إمساك المال. والثاني فقير حريص مع غني حريص، إذ لا يخفى أن الفقير القانع أفضل من الغني الحريص الممسك، وأن الغني المنفق ماله في الخيرات أفضل من الفقير الحريص. أما الأول فربما يظن أن الغني أفضل من الفقير، لأنهما تساويا في ضعف الحرص على المال، والغني متقرب بالصدقات والخيرات والفقير عاجز عنه، وهذا هو الذي ظنه ابن عطاء فيما نحسبه، فأما الغني المتمتع بالمال وإن كان في مباح فلا يتصور أن يفضل على الفقير القانع، وقد يشهد له ما روي في الخبر: أن الفقراء شكوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم سبق الأغنياء بالخيرات والصدقات والحج والجهاد، فعلمهم كلمات في التسبيح وذكر لهم أنهم ينالون بها فوق ما ناله الأغنياء، فتعلم الأغنياء ذلك فكانوا يقولونه، فعاد الفقراء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبروه، فقال عليه السلام: " ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء." وقد استشهد ابن عطاء أيضاً لما سئل عن ذلك فقال: الغني أفضل لأنه وصف الحق، أما دليله الأول ففيه نظر، لأن الخبر قد ورد مفصلاً تفصيلاً يدل على خلاف ذلك: وهو أن ثواب الفقير في التسبيح يزيد على ثواب الغني، وأن فوزهم بذلك الثواب فضل الله يؤتيه من يشاء، فقد روى يزيد بن أسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: بعثني الفقراء رسولا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: إني رسول الفقراء إليك؛ فقال: " مرحباً بك وبمن جئت من عندهم قوم أحبهم " قال: قالوا يا رسول الله إن الأغنياء ذهبوا بالخير يحجون ولا تقدر عليه، ويعتصرون ولا تقدر عليه، وإذا مرضوا بعثوا بفضل أموالهم ذخيرة لهم؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: " بلغ عني الفقراء أن لمن صبر واحتسب منكم ثلاث خصال ليست للأغنياء: أما خصلة واحدة: فإن في الجنة غرفاً ينظر إليها أهل الجنة كما ينظر أهل الأرض إلى نجوم السماء، لا يدخلها إلا نبي فقير، أو شهيد فقير، أو مؤمن فقير، والثانية: يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم وهو خمسمائة عام، والثالثة: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، وقال الفقير مثل ذلك لم يلحق الغني بالفقير ولو أنفق فيها عشرة آلاف درهم، وكذلك أعمال البر كلها "، فرجع إليهم فأخبرهم بما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالوا: رضينا رضينا. فهذا يدل على أن قوله: " ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء " أي مزيد ثواب الفقراء على ذكرهم. وأما قوله: إن الغني وصف الحق، فقد أجابه بعض الشيوخ فقال: أترى أن الله تعالى غني بالأسباب والأعراض، فانقطع ولم ينطق، وأجاب آخرون فقالوا: إن التكبر من صفات الحق فينبغي أن يكون أفضل من التواضع، ثم قالوا: بل هذا يدل على أن الفقر أفضل لأن صفات العبودية فضل للعبد كالخوف والرجاء، وصفات الربوبية لا ينبغي أن ينافيها، ولذلك قال تعالى فيما روى عنه نبينا صلى الله عليه وسلم: " الكبرياء ردائي والعظمة إزاري، فمن نازعني واحداً منهما قصمته." وقال سهل: حب العز والبقاء شرك في الربوبية ومنازعة فيها لأنهما من صفات الرب تعالى؛ فمن هذا الجنس تكلموا في تفضيل الغني والفقير، وحاصل ذلك تعلق بعمومات تقبل التأويلات وبكلمات قاصرة لا تبعد مناقضتها، إذ كما يناقض قول من فضل الغني بأنه صفة الحق بالتكبر، فكذلك يناقض قول من ذم الغني لأنه وصف للعبد بالعلم والمعرفة فإنه وصف الرب تعالى، والجهل والغفلة وصف العبد، وليس لأحد أن يفضل الغفلة على العلم، فكشف الغطاء عن هذا هو ما ذكرناه في كتاب الصبر: وهو أن ما لا يراد لعينه بل يراد لغيره فينبغي أن يضاف إلى مقصوده، إذ به يظهر فضله، والدنيا ليستمحذورة لعينها ولكن لكونها عاقبة عن الوصول إلى الله تعالى، ولا الفقر مطلوباً لعينه لكن لأن فيه فقد العائق عن الله تعالى وعدم الشاغل عنه، وكم من غني لم يشغله الغني عن الله عز وجل مثل سليمان عليه السلام وعثمان وعبد الرحمن بن عوف رضي الله تعالى عنهما، وكم من فقير شغله الفقر وصرفه عن المقصد، وغاية المقصد في الدنيا هو حب الله تعالى والأنس به، ولا يكون ذلك إلا بعد معرفته، وسلوك سبيل المعرفة مع الشواغل غير ممكن، والفقر قد يكون من الشواغل كما الغنى قد يكون من الشواغل، وإنما الشاغل على التحقيق حب الدنيا إذ لا يجتمع معه حب الله تعالى في القلب، والمحب للشيء مشغول به سواء كان في فراقه أو في وصاله، وربما يكون شغله في الفراق أكثر، وربما يكون شغله في الوصال أكثر، والدنيا معشوقة الغافلين، المحروم منها مشغول بطلبها، والقادر عليها مشغول بحفظها والتمتع بها، فإذا إن فرضت فارغين عن حب المال بحيث صار المال في حقهما كالماء استوى الفاقد والواجد، إذ كل واحد غير متمتع إلا بقدر الحاجة، ووجود الحاجة قدر الحاجة أفضل من فقده، إذ الجائع يسلك سبيل الموت لا سبيل المعرفة، وإن أخذت الأمر باعتبار الأكبر فالفقير عن الخطر أبعد؛ إذ فتنة السراء أشد من فتنة الضراء، ومن العصمة أن لا يقدر، ولذلك قال الصحابة رضي الله تعالى عنهم: بلينا بفتنة الضراء فصبرنا، وبلينا بفتنة السراء فلم نصبر. وهذه

خلقة الأدميين كلهم إلا الشاذ الفذ الذي لا يوجد في الأعصار الكثيرة إلا نادراً. ولما كان خطاب الشرع مع الكل لا مع ذلك النادر - والضراء أصلح للكل دون ذلك النادر - زجر الشرع عن الغنى وذمه، وفضل الفقر ومدحه، حتى قال المسيح عليه السلام: لا تنظروا إلى أموال أهل الدنيا فإن بريق أموالهم يذهب بنور إيمانكم. وقال بعض العلماء: تقلب الأموال يمص حلاوة الإيمان. وفي الخبر: " إن لكل أمة عجلاً وعجل هذه الأمة الدينار والدرهم" وكان أصل عجل قوم موسى من حلية الذهب والفضة أيضاً، واستواء المال والماء، والذهب والحجر إنما يتصور للأنبياء عليهم السلام والأولياء؛ ثم يتم لهم ذلك بعد فضل الله تعالى بطول المجاهدة، إن كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول للدنيا: " إليك عني" إذ كانت تتمثل له بزینتها. وكان علي كرم الله وجهه يقول: يا صفراء غري غري، ويا بيضاء غري غري. وذلك لاستشعاره في نفسه ظهور مبادئ الاعتزاز بها لولا أن رأى برهان ربه، وذلك هو الغنى المطلق، إذ قال عليه الصلاة والسلام: " ليس الغنى عن كثرة العرض إنما الغنى غنى النفس". وإذا كان ذلك بعيداً فإن الأصل لكافة الخلق فقد المال وإن تصدقوا به وصرّفوه إلى الخيرات، لأنهم لا يفكرون في القدرة على المال عن أنس بالدنيا وتمتع بالقدرة عليها واستشعار راحة في بذلها، وكل ذلك يورث الأناجى بهذا العالم، ويقدر ما يأنس العبد بالدنيا يستوحش من الأخرى؟ ويقدر ما يأنس بصفة من صفاته سوى صفة المعرفة بالله يستوحش من الله ومن حبه، ومهما انقطعت أسباب الأناجى بالدنيا تجافي القلب عن الدنيا وزهرتها، والقلب إذا تجافى عما سوى الله تعالى وكان مؤمناً بالله انصرف لا محالة إلى الله، إذ لا يتصور قلب فارغ، وليس في الوجود إلا الله تعالى وغيره، فمن أقبل على غيره فقد تجافى عنه ومن أقبل عليه تجافى عن غيره، ويكون إقباله على أحدهما بقدر تجافيه عن الآخر، وقربه من أحدهما بقدر بعده من الآخر، ومثلهما مثل المشرق والمغرب فإنهما جهتان، فالمتردد بينهما يقدر ما يقرب من أحدهما يبعد عن الآخر، بل عين القرب من أحدهما هو عين البعد من الآخر، فعين حب الدنيا هو عين بغض الله تعالى، فينبغي أن يكون مطمح نظر العارف قلبه في عزوبه عن الدنيا وأنسه بها، فإن فضل الفقير والغني بحسب تعلق قلبيهما بالمال فقط، فإن تساويا فيه تساوت درجتهم، إلا أن هذا مزلّة قدم وموضع غرور، فإن الغني ربما يظن أنه منقطع القلب عن المال، ويكون دفيناً في باطنه وهو لا يشعر به، وإنما يشعر به إذا فقد، فليجرب نفسه بتفريقه أو إذا سرق منه، فإن وجد لقلبه إليه التفاتاً فليعلم أنه كان مغروراً، فكم من رجل باع سرية له لظنه أنه منقطع القلب عنها فيعد لزوم البيع وتسليم الجارية اشتعلت من قلبه النار التي كنت مستكنة فيه، فتحقق إذن أنه كان مغروراً، وأن العشق كان مستكناً في الفؤاد استكنان النار تحت الرماد، وهذا حال كل الأغنياء إلا الأنبياء والأولياء، وإذا كان ذلك محالاً أو بعيداً فلنطلق القول بأن الفقر أصلح لكافة الخلق وأفضل، لأن علاقة الفقير وأنسه بالدنيا أضعف ويقدر ضعف علاقته يتضاعف بل هو تحقيق؛ فإنك لو شاهدت بنور البصيرة لرأيت مشحوناً بأصناف السباع وأنواع الهوام مثل الغضب والشهوة والحقد والحسد والكبر والعجب والرياء وغيرها، وهي التي لا تزال تفترسك وتتهشك إن غفلت عنها لحظة، إلا أنك محجوب العين عن مشاهدتها؛ فإذا انكشف الغطاء ووضعت في قبرك عاينتها وقد تمثلت لك بصورها وأشكالها الموافقة لمعانيتها، فترى بعينك العقارب والحيات وقد أحدقت بك في قبرك وإنما هي صفاتك الحاضرة قد انكشفت لك صورها، فإن أردت أن تقتلها وتقرها وأنت قادر عليها قبل الموت فافعل، وإلا فوطن نفسك على لدغها ونهشها لصميم قلبك فضلاً عن ظاهر بشرتك، والسلام.